بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآنَ منهاجاً للحياة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد هادي الأمة إلى معرفة الحقائق على ما هي عليها، وعلى آله وصحبه الذين تلبسوا بهديه وساروا على نهجه .

ليس البحث في موضوع الكون من الناحية التربوية العقدية في الإسلام بحثاً علمياً للكشف عن عناصر الكون ومكوناته وخواصه، وليس بحثاً لغوياً في تحديد معنى الكون، وإن كانت معرفة المعنى اللغوي مما لا يستغنى عن الإلمام به، في كشف مفهوم الإسلام عن الكون، وكذلك ليس البحث عن مفهوم القرآن عن الكون بحثاً فلسفياً فكرياً، بحيث لا يتجاوز حدود الفكر، وإنما هو بحثٌ في الكون منسجماً مع دور الإنسان الإيجابي في هذا الكون الذي لم يخلقه الله ـ سبحانه ـ باطلاً و لا عبثاً، فتبارك الله أحسن الخالقين.

للقرآن منهج تربوي لكن ليست توجيهات متناثرةً تجيء عرَضاً في سياق الآيات، بل هو مبنيٌّ على أُسُسٍ، وهو منهج شامل متكامل، ولكل من هذه الأُسُس منهج دقيق لا نجده في غير كتاب الله المعجز، وفريد في أثره في داخل النفس .

الناس ليسوا على درجةٍ سواء في تيقظ انتباههم في معرفة الكون. منهم من استمد معرفته بالكون وليدة تأمُّله في المعاني العقلية، وآخر كانت معرفتُه حوله من تأملاته في المشاهد نية، وثالث استيقظ وعيُه تجاهه من ملاحظةِ إثارةٍ وجدانية . لذا توسل القرآن بهذه الوسائل لاقتناع الإنسان بالكون على ما هو عليه .

يتحدث القرآن عن الكون حديثاً متسلسلاً من جوانب متعددة. فهو يحدثنا قبل كل شيء عن وجود مكوِّنه، من خلال دلائل آثار وجوده وصفاته، ثم يلفت نظرنا إلى كونٍ طائعٍ وساجدٍ ومسبِّحٍ ومتألمٍ من عصيان البشر، ثم يثير خيالنا من خلال تسخير الكون لخدمة الإنسان إلى الخضوع للمسخِّر، لأن الإنسان مفطور على حبّ من أحسن إليه.

ثم ينبهنا إلى أن هذه المكونات مع ذلك مظاهر أخاذة خادعة، ويحذرنا من الانخداع بها والركون إليها، ولكنه يعود فيدفعنا إلى استخدامها والاستفادة منها، ويُبصِّرُنا بأنها ذاتُ أهميةٍ لإقامة أسباب عيشنا وترسيخِ مجتمعنا، ويحذرنا من تجنبها أو الإفراط في التمتع بها.

إن من الأسباب الرئيسة العائقة عن التمسك بالحق هو إخفاء جهلنا بحقيقة الكون، الذي يرافقه التظاهر بالعلم البراق الخادع، وبيان هذا الجهل من الأسباب الرئيسة في اختيار الموضوع . ففي هذا البحث نلقي الضوء على التعريف القرآني الدقيق للكون، وإزالةِ الحُجُب عن جهلنا حوله ـ قدر المستطاع ـ حسبَ الخطة المدروسة .

وأما خطتي في هذا البحث فتتكون من: مقدمةٍ، وثلاثِ مباحث، وخاتمةٍ، وذلك كالآتي:

المبحث الأول: قسمته إلى مطلبَين .

المطلب الأول : التعرُّف بالمنهج القرآني التربوي العقلي وميزتِه.

المطلب الثاني: بيان المنهج العقلي التوفيقي وركزت على الجانب الثاني للتوفيق بين الآيات الباحثة عن الكون باتجاهين متعاكسين وبينهما ـ في الظاهر ـ ما يشبه التناقض، وبيان الحكمة في هذا المدِّ والجزر من التحليل .

المبحث الثاني: فخصصتُه للشواهد التأريخية والقصص القرآنية، وقسمته على مطلبين، كل مطلب يعالج مسألة حول القصة، على النحو التالي :

المطلب الأول: للتعريف بالمنهج القرآني التربوي القصصي وميزته.

المطلب الثاني: تركيز القرآن على هذا الجانب تصديقاً للتعريف النظري بالكون. وبالتالي التأكيد على ضرورة الإيمان بالله في تعريف الكون.

المبحث الثالث: للتعريف بالمنهج القرآني التربوي الوجداني وميزته.

المطلب الأول: للتعرُّف بالمنهج القرآني في استعمالِه لهذه الوسيلة .

المطلب الثاني: تركيز القرآن على الإثارة الوجدانية ترسيخاً للتعريف النظري بالكون وما يترتب عليه .

الخاتمة: وقد ذكرتُ فيها أهم النتائج التي توصلتُ إليها .

مدخلٌ: في أسُسُ المنهج التربوي في القرآن:

الأسس التربوي التي يقوم عليها المنهج القرآني، يمكن أن يلخص فيما يلي:-

١- الاستدلال العقلي .

٢- الشواهد التأريخية أو القصص القرآني .

٣- الإثارة الوجدانية .

فلنبدأ بتفصيل هذه الأسس، لكن قبل البدء بالتفصيل لابدَّ أن نتساءل : لماذا اتخذ القرآن هذه الأُسُس في منهجه التربوي ؟ .

أجابنا القرآن بأنه كتاب هداية وغايتُه إصلاحُ القلب البشري، وإقامةُ الحياة في الأرض على أُسُس من الحق والعدل، ولم يقصد بعرض الأدلة أيَّاً كان نوعها مجردَ المعرفة الثقافية، ولا مباراتِ الثقافات والفلسفاتِ الأخرى، ليُثبِتَ تفوقَه المنطقي وقدرتَه البلاغيَّ عليها فحسب، بل أراد أن تتحول هذه المعرفة الفكرية الى حركة عاطفية، ثم الى قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع . ولا يمكن هذا العمل بمجرد الدليل العقلي ؛ إذ هو وحده لا يقدر أن يكسب ثقة النفس ما لم يدعمه شاهد من الواقع يصدِّقه وذلك هو التأريخ بأحداثه وعِبَره، وهو بعد أن ينال من النفس هذه الثقة لايسطر عليها بالقيادة والتوجيه، ما لم يجند له جيش من العواطف والأشواق، وتلك هي الإثارة الوجدانية [١].وعلى هذا استعان القرآن في منهجه بالعقل والوجدان معاً لخضوع النفس لقراراته؛ إذ العقيدة بشيء لا تدفع صاحبها إلى السلوك الملائم تجاهَ ذاك الشيء إلا إن استقرَّتْ يقيناً بالعقل، ثمَّ فاضت منه عاطفةً ووجداناً على الفؤاد. فكثيرون هم الذين يُضحُّون بكلِّ شيءٍ في سبيلِ ما يُحبُّون أو حذراً مما يخافون؛ إذ سلطان العاطفة غالب، ولكن قليلون جدَّاً أُولئك الذينَ يُضحُّون في سبيل ما يعلمون، إذ سلطان العقل وحده ضعيف على توجيه النفس .

وعلى هذا المبدأ أبدأُ بتفصيل هذه الأسس مستشهداً بالشواهد القرآنية في تعريف الكون .

المبحث الأول: الإستدلال العقلي

عدَّ القرآن الكريم مصدرَين للعلم، أحدهما: عالَم الطبيعة، وآخرهما: عالَم التأريخ، فدعا إلى التفكّر في الأنفس والآفاق، وفي ماضي الأمَم والمجتمعات ـ الذي يسميه القرآن بأيّام الله، وسُنَنه في خلْقه، ويسميه العلم الحديث بالتأريخ ـ توصُّلاً بكل ذلك إلى نتائج ذات قيمةٍ عميقة الأثر، بعيدة المدى في المصير الإنساني.

ليستْ مزيةُ القران في شموله هذه الجوانب بحثاً فحسب، بل في إقامة التوازن بينها، وهذا يحتاج الى منهج. فلْنبدء بالبحث عن عالم الطبيعة مبتدِأً بالمنهج العقلي، ونحيل عالَم التأريخ مع منهجِه بحثاً في المبحث اللاحق .

المطلب الأول : المنهج القرآني في الاستدلال العقلي فى تعريف الكون

لو نظرنا إلى التعريف البشري للكون، والوقوفِ على حقيقة أمره، وصلنا إلى أن العقل البشري عاجز عن الوصول إلى إدراك حقيقة الكون كما صوَّرها القرآن(٢).

لقد تكرر في القرآن الكلام عن الكون، والذي نريد أن نوضحه هو البحث عن الكون من الجانب التربوي الذي هو بيت القصيد في هذا البحث .

للقرآن منهجان المنهج التربوي، والمنهج التوفيقي، فالمنهج التربوي العقلي يتجلى في تفسير الكون من خلال نظرتين متعاكستين ظاهرياً ؛ إذ الكون في الإسلام ليس غايةً بل وسيلةً، ولترسيخ هذا المبدأ يربِّي القرآنُ الإنسانَ بغذاءين اثنين حول معرفةِ حقيقةِ الكون:

أحدهما: ينبهنا إلى أن هذه المكونات مع أنها مظاهر أخاذة لكنها خادعة، ويحذرنا من الانخداع بها والركون إليها.

وثانيهما: يبصّرنا بأنها ذاتُ أهميةٍ لإقامة أسباب عيشِنا وترسيخ مجتمعنا، ويحذرنا من تجنبها أو الإفراط في التمتع بها.

ولبيان المنهج الثاني التوفيقي نقول: إذا كان كلام العاقل الصادق يجب أن يفسِّر بعضُه بعضاً، ويُرَدُّ بعضُه إلى بعض؛ لأنه كلُّه حقٌّ والحق لا يناقضُ الحقَّ، فكيف بأحكم الكلام وأصدقه؟! قال ـ تعالى ـ:[كُلٌّ مِّنْ عند رَبِّنَا](٣)، [أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عند غَيْرِ اللّه لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيراً](٤)، إذن لا بدَّ للقرآن من منهج دقيق في الجمع بين النظرتين فالقانون الذي يتكفَّل بكشف الحكمة عما حدث بين النظرتين ـ من التعارض الظاهري ـ وتفسير نصوص القرآن والوقوف على مقاصدها هو أن لا يُفسَّر أيٌّ من الطائفتين من الآيات إلا في ضوء الطائفة الثانية، فلا يجوز التأملُ في معنى أيٍّ منهما بمعزلٍ عما تدل عليه الطائفةُ الأخرى، إذ كلٌّ من الطائفتين فيها ردٌّ لفكرةٍ منحرفةٍ وبجمعهما تَبيَّن حدٌّ وسطٌ لا يمكن تحقُّقُه إلا في ظلِّ عبوديةِ الله والخشوعِ له(٥).

فلا بدَّ من توضيح هذه القاعدة الكبرى مستشهداً بالآيات القرآنية ـ في المطلب الآتي ـ .

المطلب الثاني: الكون بين أهميته وكونه مظاهر خادعة

تدور كلمة الكون(٦) في القواميس والمعاجم اللغوية على المعاني الآتي:

الكون: الحدث، والكائنة: الحادثة، الكون: الوجود المطلق، والكون: الدنيا والآخرة، والكون: حصول الصورة في المادة بعد أن لم تكن حاصلة (٧) .

ذهب علماء المسلمين إلى أن الكون هو العالم الحادث سواء أكان مشاهدا محسوسا أم غيباً وجعلوا الكون كلمة دالة على المخلوق(٨) .

لا بدَّ أن نشير إلى أمرٍ في بالغ الأهمية هو أنَّ التأمل في المشاهد الكونية ليس مقصوداً لذاته وإنما غايته الوصول إلى الخالق وإلى تجليات أسماء الله وصفاته في صفحات الكون وبالتالي إصلاح القلب البشري وفكرِه من خلال العبرة بتلك التجليات(٩).

المعضلة التي تقابلنا هي أنها لدى التأمل نجد ان القرآن يبصرنا إلى حقيقتين اثنتين وبينهما ـ في الظاهر ـ ما يشبه التناقض، فلا بد من حلِّ هذا اللغز:

الحقيقة الأولى: الترغيب في التفكر في آيات الكون، لكن القرآن لا يقف في نظرته إلى الوجود عند حدود عالم الشهادة والحس، كما يقف الماديون، فوجود الكون نفسه يحتاج إلى تحليل، لذا نجد أن القرآن يشير دائما إلى أمور:

أ ـ الخلق، أي: خلْق الكون وما فيه، من حيث أصله وبدايته، مثل قوله ـ تعالى ـ: [وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ] (١٠). وحين يدعونا إلى التفكر في الخلق وإلى الإجابة عن أسئلة تدور حول (الخلق) أي: الإيجاد من العدم (١١)يدفعنا إلى البحث في أكبر حقيقة، وهذه بعض آيات القرآن:[أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ](١٢)، وكقوله في احتمالات خلق الإنسان: [أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ](١٣). هذه قضية لها ثلاثة حلول لا رابع لها، وذلك: إما خلقه العدم وإما خلق بنفسه وإما خلقه خالق، فإن أبطلنا الحلّين الأوَّلين، تعيّن أن يكون الحل الثالث هو الصواب الذي نقيم له وزناً (١٤).

ب: التقدير : كون هذا الخلق مقدراً ومدبراً، استناداً إلى خطة وأهداف متكاملة،كقوله ـ تعالى ـ: [وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً] (١٥). الكون يجري فيه تبدُّل وتغيير وحركة فهو يحتاج إلى قدرة ولابد للقدرة من قادر، وإليك بعض الآيات المشيرة إلى ذلك بوضوح: قال ـ تعالى ـ:[وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ] (١٦)، وقال ـ تعالى ـ:[أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ] (١٧)

ج ـ التسخير وفيها الإعلان بأن الكون مسخَّر للإنسان، وليس الإنسان مسخَّراً للكون، وله صلة الاستثمار والانتفاع به، هذه طائفة يسيرة أيضاً من حديث القرآن لنا عن الكون من هذا الجانب: قال ـ تعالى ـ:[أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ] (١٨). وقال ـ تعالى ـ: [وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ] (١٩)، وقال ـ تعالى ـ: [اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ] [٢٠] ألا ترى إلى هذه الكلمات (ذللناها ومكناهم وسخَّر) كيف صوّرت إخضاع الله هذه المشاهد الكونية المختلفة لحاجات الإنسان ومنافعه [٢١]؟!.وقال: [وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنَ] [٢٢]، إذا كان أكبر جرم في الكون خاضع لقدرة خالقه، لابد أن يكون الإنسان أكثر خضوعاً إذ هو جزء صغير في هذا الكون. وبالتالي لو نتأمل هذه المكونات، لنراها مشتملةً على أبرز مظاهر الحكمة في الإبداع، وعلى أدق معاني التدبير الهادف في علاقة ما بينها، ليتدبَّر الإنسان أن الكون الخادم لم يكن مخلوقاً عبثاً فكيف بالإنسان المخدوم ؟![٢٣].

وعنصر الجمال نوعٌ من التسخير لإشباع الشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجته. هذه السماء المعلقة في الفضاء بلا عمد، موزونةُ الحركة، تدور أجرامُها في مدارها المرسومة لها، ولا يصطدم فيها نجمٌ بنجمٍ، وقد جعلها الله زينةً وبهجةً وجمالاً: [إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ][٢٤]. والانسجام نوع من التسخير، فعلاقة السماء بالأرض علاقةُ عطاءٍ وتفضُّلٍ وتكامل، فالماء ينزل من السماء فيكون رحمةً، وتستجيب الأرض، فإذا هي تربو، تنبت من كل صنف ناضر بهيج، من خلال المطر، فلم يحدث ولن يحدث الصراع بين الماء والأرض بل يحدث الانسجام. قال ـ تعالى ـ: [وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ] [٢٥]. وكذا النجوم في كبد السماء مصابيح هداية للبشر في متاهات البر والبحر بدلاً من الصراع، قال ـ تعالى ـ: [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] [٢٦].

لو نظرنا إلى هذه الآيات وأمثالها نظرة أوَّلية لنرى أن فيها مكانة الإنسان وعلوِّ شأنه، وبالتالي فيها الدعوة إلى استعمال منافع الأجزاء الكونية استعمالاً مطلقاً .

الحقيقة الثانية: التحذير من الانخداع بمظاهر الكون، ووصفها بأنها فانية غير باقية، وإليكم بعض الآيات المشيرة إلى ذلك بوضوح: قال ـ تعالى ـ:[وَلَا تَمُدَّنَّ عينيك إِلَى ما متَّعنا بِهِ

أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى] (٢٧)، وقوله ـ تعالى ـ: [قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً] (٢٨) وقوله ـ تعالى ـ : [كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ] (٢٩)، وقال : [كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ](٣٠). [الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا](٣١). فلو أن الناس جميعاً استقروا على هذا الفهم من الإعراض عن الدنيا، لبطل معنى الأمر الإلهي في قوله ـ تعالى ـ:[هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا] (٣٢)، ولعادت الأرض خراباً، ولبطلت الحكمة من تسخير الله الكونَ للإنسان.

لو نظرنا إلى المجموعة الأولى من الآيات وأمثالها نظرةً أوّلية لنرى أن فيها التحذير من الأنخداع بمظاهر الكون وبالتالي فيها الدعوة إلى التحفظ من استعمال منافع أجزائه وكذلك إذا نرنا إلى المجموعة الثانية من الآيات وأمثالها نظرة سطحيةً لنرى أن فيها الدعوة والتشجيع للاستفادة من الدنيا، وهذا يؤدي إلى الطمع والتعلق بالدنيا .

لابد أن نتساءل : ما الحكمة من هذين البيانين مدحاً وذماً ؟ كيف يتأتّى للإنسان أن يغرس في نفسه القناعةَ التامةَ بأن الدنيا بكل ما فيها ظلٌّ زائلٌ لا يستحق التقديس، ثم يُقبل عليها مع ذلك متتبعاً خيراتها مستفيداً من ثمارها، كيف السبيل إلى التوفيق بين هاتين الطائفتين من الآيات ؟!.

الجواب: أوضح القرآن لأولي الألباب أن المسالة تكمن في شرط كبير الأهمية والصعوبة معاً، وهو يتمثل في ممارسة الإنسان دنياه بدافع وظيفي وبروح المسؤولية لا بدافع التعشق النفسي من الطمع والغرور ولن يتحقق ذلك بطبيعة الحال إلا إذا اجتثت الدنيا ومغرياتها من لقلوب، وأدركوا تفاهتها وخطورة الاغترار بها، وهيهات أن يتم ذلك إلا بعد اليقين بوجود الخالق ـ عز وجل ـ، والخضوع الكامل له، ثم الإصغاء بدافع هذا اليقين إلى بيانه عن حقيقة هذا الكون وقيمته ومدى أهميته، وكيفية التعامل معه(٣٣).

والطريق للتوفيق بين الطائفتين من الآيات هو: أن تلك الآيات التي أوضح الله فيها هوانَ الدنيا وتفاهةَ مظاهرِها، لا يجوز أن تُفهَم معزولةً عن الآيات الأخرى التي بيّن الله فيها واجبَ الإنسان تجاهه وشجَّع الإنسان على الاستفادة منها وتعميرِها. وتبيَّن في الوقت نفسه أن الآيات الأخرى التي أوضح الله فيها واجبَ الإنسان تجاهَ خيراتِ الدنيا واستعمالها، لا يجوز أن تُفسَّر منفردةً إلا على ضوء تلك الطائفة السابقة من الآيات التي تُوحي العكسَ.

لو كان القرآن ركَّز في تفسير حقيقةِ الكون على هذا الجانب ـ جانب الذم وحده ـ لأدَّاه إلى أن لا يُقيم الإنسان للكون وزناً، ولَما التفتَ إلى شيء مما يسمى بعمارة الأرض، ولأدَّاه إلى أن ينظر إليها نظرةَ هوان وازدراء، لكن القرآن لم يقتصر في التعريف بالكون على بيان هذا الجانب وحده ـ كما سيأتي ـ بل أكد إلى تعريف جانب آخر من حقيقتها، ودعا إلى فهمِها فهماً متكاملاً، يُنمي في الإنسان شعورَ الإحساس بقدسيةِ الكون، ولا يمكن ذلك إلا من خلال ضرورة الإيمان بالله الأساس للتوازن بين المفهومين في شأن الكون (٣٤) .

فالقرآن بكل من البيانين المتوازيين يردُّ على فكرةٍ معاكسة، فالآيات التي تذم الدنيا يردُّ بها القرآن على الذين يتعلقون بالدنيا بدافع التعشق النفسي والغرور بها، وبالآيات التي تمدحُ الدنيا وتحسبها وسيلة كسبِ القيامة وإعمارِ الأرض يردُّ بها على الذين لا يهتمُّون بها ويتقاعسون، ولا خير فيهم لا لهم ولا لغيرهم.

وبجمع البيانين يتكون حداً وسطاً هو التعلق بالدنيا بروح المسؤولية لا بروح التعشق النفسي، إذ الإنسان لمَّا نظر إلى الآيات التي أوضح الله فيها واجبَ الإنسان تجاه خيرات الدنيا يستشعر المسؤولية ولا مناص من التهرب، وبالمقابل لو نظر إلى الآيات التي أوضح الله فيها هوانَ الدنيا وتفاهتها يستشعر خطورة تعلّقها بروح التعشق النفسي ولا يمكن هذا التصور إلا بالإيمان الأساس للإصغاء إلى تعاليم القرآن، إذن الإيمان بالله شرط أساسي لتكميل العقل البشري وتصحيح تصوراته تجاه الكون.

هذه هي النظرة القرآنية التي تنطلق بالإنسان من نفسه إلى الكون المحيط به تفكيراً وشعوراً وعملاً لتنتهي بمجموعها بالإنسان إلى آثار تجليات الله خالقِ الكون وخالقِ الإنسان وخالقِ الحياة .

فبهذا اليقين وما يترتب عليه، يستعدُّ الإنسان لأن يصحو وينتبه إلى معرفة الكون، وحدود التعلق هو بها، ثم إن هذه المعرفة تهديه، إلى قصد السبيل بين طرفي الإفراط والتفريط، أما من لم يؤمن بوجود الخالق ـ عز وجل ـ، فهو لن يذعِن بأيِّ عبوديةٍ أو مملوكيةٍ يُدين بها لأحدٍ، وتلك هي أوَّل منزلقاتِ ضياعِ الإنسان وسببٌ لانخداعه بمظاهر الكون، وبالتالي لا يؤمن بالقيامة والحشر والحساب حتى يخاف من جزاء تصوره الخاطئ حول الكون، وبعبارة أخرى: أن الانسان سيدُ الموجودات في ظل عبودية الله ـ تعالى ـ، فان أعرض وجحد فقَد السيادة إذ يصير عبداً لمظهر من مظاهر الدنيا سواء كان مظهراً طبيعياً او انساناً او لذة او مادةً أو منصباً، وسواء أحس بها أم لم يحس ورضي أم كره . ويبيع دينه وآخرته بمتاع الدنيا.

تلك هي حاجة الإنسانية كلها إلى العقيدة الصحيحة عن الكون، وذلك عن طريق الإيمان بالله وسلطانه الحقيقي في الكون، ورقابته على العباد وبعثهم بعد الموت ومحاسبتهم على ما كسب أو اكتسب، أي: إن الله ما ألزم عباده بأن يعرفوه ويستيقنوا بوجوده، إلا ليهديهم من خلال ذلك اليقين إلى أيسر طريق يتعرفون به على الكون والحياة ومعرفةِ أنفسهم، فما أحوج الإنسان إلى هذه المعرفة الأساسية ليكون رجلاً ربانياً وسيداً على الكون بكل ما تحمله الكلمة من معنى !!.

هذه العقيدة المرتكزة على الإيمان بالله والخضوع الكامل له هي التي تُحرِّر الإنسانَ من جميع أنواعِ العبادات ذاتِ النتائج الضارة، كعبوديته المذلة للطبيعة أو لجزءٍ منها من الشهوة والمادة والسلطة وحتى العقل والعلم، ولو كان العلم والعقل لهما قِيَمٌ انسانيةٌ ولكنها مع ذلك ليستا هما القيمة العليا ولا هما بمثابة الإله الذي يُعبَد ويكون لهما الخضوع المطلق.

وبوسعنا أن نلاحظ أثر هذه التبصرة القرآنية، في نفوس أصحاب رسول الله(ﷺ)وعقولهم، ا نقارن بين نظرة أحدهم إلى الحياة وتعلقة بها، إذ كان يعيش أيام الجاهلية، ونظرته الجديدة إليها وتقويمه لها بعد أن دخل في رحاب الإسلام، وأصغى إلى بيانات القرآن وهديه .

وكذلك بوسعنا أن نلاحظ أثر ضياع هذه التبصرة القرآنية في المجتمعات الإسلامية، عندما نقارن بين نظرة سلفهم الصالح إلى الحياة وبين نظرةِ العالَم الإسلامي الآن إليها كيف تاهت عن تبصرة هذا الكتاب الرباني وتسلل إليها الشقاق والآلام والاضطرابات النفسية ؟!![٣٥].

المبحث الثاني: الاستدلال بالشواهد التأريخي والقصص القرآنية

الأحداث البشرية في القرآن تتمثل في حقيقة الابتلاء التي تفسِّر تفسيراً واضحاً علاقةَ الفعل الإلهي بالفعل البشري، بمعنى أن القصص القرآني تتكون من جوابٍ إلهي لمواقف البشر ى مستوى الأفراد أو الجماعات. وهذا هو التفسير القرآني لانهيار الحضارات، وزوال الدُّوَل، وما يحيق بالإنسانية من ويلات:[فانظُر كيف كان عاقبةُ الْمجرمين][٣٦]، [فانظُر كيف كان عَاقِبَةُ الظَّالمِينَ][٣٧]،[فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ][٣٨] . وهكذا يرى المسلم في دراسته ـ وفق المنهج القرآني ـ تصديقَ عقيدته في كلِّ ما يقرأ ويسمع وما يُشاهد .

قبل البحث عن تلك الشواهد أودُّ أن اشير إلى أمر بالغ الأهمية هو أن استعمال الشواهد التأريخية مهم لكن الأهم كيفية استعمال هذه الوسيلة في التربية، فلا بدَّ من منهج لكيفية استعمالها؛ لذا نلقي الضوء على المنهج القرآني في عرض القصص بإيجاز في المطلب الآتي .

المطلب الأول: المنهج القرآني في عَرْض القصص

إنَّ القصص منهج رباني مبارك في الاستدلال، وتُعَدُّ خلاصةٌ لتجارب الأمم السابقة، تُعبِّر عن سننِ الله ـ تعالى ـ في الأمم. ومن عظيمِ فضلِ الله على هذه الأمة المحمدية أنْ خَصَّ لها هذه الخلاصات في كتابهِ العظيم .

وللقصص والأبحاث التأريخية أهمية كبرى في مجال التربية ؛ إذ الانسان مفطور على التأثر بالغير، وهذا من صميم مكوناته النفسية. لكن سبيل القرآن غير سبيل كتب التأريخ، إنها تعني بالحوادث السياسية، وتعنى بما يختص البلاد، وبالملوك، وبالوزراء، والحروب، هذا موضوع التأريخ، ولا بأس به، أما ما كان في صالح الإنسانية، وما كان فيه درسٌ للدارسين وعبرةٌ تبرين، فلا، ولكن القرآن بالعكس من ذلك لا يُعني بهذه الحكايات، بل يعني بأمراضٍ بشريةٍ يهتم بمواضع الضعف في الطبيعة الإنسانية، عنى بما فيه عبرةٌ وما فيه درس للإنسان في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمانٍ(٣٩). لذا اهتم القرآن بعرض نماذج لشخصيات انسانية، لكن لا يسردها اعتباطاً بل له منهج دقيق في ذلك يمكن أن يلخص فيما يأتي :

أولاً: لقد عمد مؤرخوا الأحداث البشرية على الأرض إلى تسجيل الأمم الغابرة، وتعليلها قائمةً على أفعال الإنسان فقط، بينما الأحداث البشرية في القرآن تتمثل في حقيقة الابتلاء التي تفسِّر تفسيراً واضحاً علاقةَ الفعل الإلهي بالفعل البشري، بمعنى أن القصص القرآنية تتكون من جوابٍ إلهي لمواقف البشر على مستوى الأفراد أو الجماعات(٤٠) وهذا هو التفسير القرآني لانهيار الحضارات، وزوال الدُّوَل، وما يحيق بالإنسانية من ويلات؛ لذا آمرنا القرآن آن نتَّعظ بالأمم الخالية:[فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ](٤١)،[فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ](٤٢)،[فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ](٤٣) ، لأن الله لا يحابي أحداً :[سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا](٤٤).

مثلاً: يعرض لنا القرآن مثلاً لرجلين ابتلى أحدهما بالثراء وكثرة الأولاد وآخر بالفقر والحرمان:[وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا](٤٥)، إلى قوله ـ تعالى ـ:[وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا](٤٦).

النتيجة أن صاحب الجنتين اختار القبيح بالنسبة لابتلائه بالنعمة حيث نسب الفضل لنفسه كما فعل قارون من قبل، فقال: [إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي](٤٧)، وأنكر البعث وقال:[مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا](٤٨)، بينما الآخر سعد بمعرفة حقيقته ونبَّهه إلى أصله: [قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ من تُرَابٍ ثُمَّ من نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا](٤٩)، وبمعرفة الله وصفاته: [لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا](٥٠)، ولم ينظر إلى ما فضله الله به على طرفه المقابل من رزقٍ شاكراً لله، راضياً بقضائه، وذلك هو النجاح حيال ابتلاءٍ له بالفقر والحرمان:[فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ](٥١)، ـ هذا موقف البشر ـ .

أما جواب الله هو أن اختيار الرجل الغني للفعل القبيح استتبع من الله ـ حسب سنته ـ ابتلائه بالضراء بعد ابتلائه بالسراء، لعله يعود إلى ربه ويتضرع إليه:[يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا]. وأما جواب الله للرجل الآخر ـ حسب سنته ـ أن يبدل ابتلائه من الضراء إلى االسراء.

ثانياً: استخدام القرآن القصص كجزءٍ من منهجه التربوي لكن بشرط واحد : هو أن تكون (نظيفة) بعيدةً عن اللاواقعية(٥٢)، بل متسماً بالجدية ولو كان المذكورُ نقطةَ ضُعفٍ، لكن لا يجعل من لحظة الضعف والغريزة الحيوانية بطولةً تستحق الإعجاب ـ كما تصنع الفنون الحديثة ـ، إنه يعرضها عرضاً واقعيًّاً خالصاً، ولكنه لا يقف عندها طويلاً، وإنما يسرع ليسلط الضوء على لحظة التغلب على الضعف البشري(٥٣). مثلاً حكى لنا القرآن مسألة ذهاب سيدنا يونس ـ عليه السلام ـ فقال ـ تعالى ـ :[وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ(٥٤) عَلَيْهِ](٥٥)، مغاضباً من قومه(٥٦) لا من الله فإن غضب العبد على ربه إنما هو ألاَّ يرضى بحكمه ولا بإرادته. وهذه هي المناقضة والكفر الصراح، لا يمكن أن يعتقدَه مقلِّدٌ في الإيمان فكيف نبيٌّ ؟(٥٧) ذكر القرآن هذه المسائل المتشابهة ولا يستحي أن يذكر أمثال هذه الأمور من خلاف أولى ليعالج من خلاله أخطاء جسيمة فينا نحن المؤمنين، لذا لا يقف عندها

طويلاً، وإنما يسرع ليسلط الضوء على لحظة التغلب على الضعف البشري، أي: ليسلط الأنوار على الهدف المقصود، والذي عبَّر عنه بيان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هنا بقوله:[فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ](٥٨)، وهذا الدعاء فيه العبرة للأمة؛ يدل على ذلك صريح قول الله: [فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ](٥٩)، سيأتي التوضيح حول الآية في النقطة الخامسة.

ثالثاً: عدم الشخصنة في القصص لأن القرآن لا يعطي تأريخاً، فلم يقل: متى كانت الوقائع ولا زمنها، ولا على يد من كان هذا، ولا يحدِّد أشخاصَ القضية، كل ذلك لا يهتم به القرآن. لأن مدلول القصة إن تحدَّد زمنُها أو مكانُها، فربما قيل: إن الزمان الذي حدثتْ فيه كان يحتمل أن تحدث تلك المسألة والزمن الآن لم يعد يحتملها، وربما قيل: إن هذا المكان الذي وقعت فيه يحتمل حدوثها، وإنما الأمكنة الأخرى لا تحتمل . وكذلك لو حددَّها بشخصيات معينة لقيل: نص لا يمكن أن تحدث إلا على يد هذه الشخصيات؛ لأنها فلتات في الكون لا تتكرَّر(٦٠). مثلاً قال ـ تعالى ـ في الملك الصالح المصلح:[ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ من كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا](٦١)، إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين، ولا زمانه ولا مكانه، وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، فالتسجيل التأريخي ليس هو المقصود، وإنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان إلا إذا يتعلق الهدف بهما أو بأحدهما(٦٢).

رابعاً: لا يذكر القرآن من القصة إلا ما يتعلق بالغرض الذي سيقت القصة من أجله. فيختار من النفوس المترفعة لقطة أو لقطات التي تصلح للقدوة، ويختار من نفوس المنحرفين لقطة أو لقطات لتصلح للتنفير من أفعالهم، من أجل ذلك لايسرد القران الحوادث سرداً تأريخياً تبعاً لسلسلة الوقائع والأحداث ؛ إذ من شأن ذلك أن تبتعد القصةُ بالقاريء عن الغرض الأصلي الذي ذكرت من أجلها(٦٣).

مثلاً في بحث أصحاب الكهف، قال ـ تعالى ـ : [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ . إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى](٦٤). لم تذكر الآية أسمائهم ولا زمانهم ولا مكانهم ولا عددهم، إذ الأمور لا تؤثر في تكوين شخصيتهم، بل المهم من القصة هو الإيمان الراسخ الذي صنع فيهم الموقف البطولي لذا ركز القرآن على الموقف المطلوب: [فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ].

خامساً : درج النصائح والعبر في ثنايا القصة أو في آخرها صريحاً أو مفهوماً:

مثلاً عرض مناجاة سيدنا يونس ـ عليه السلام ـ ثم بيَّن الهدف منها، فقال: [فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ](٦٥)، وسرُّ هذه المناجات العظيمة هو أن الأسباب المادية قد هوت كلياً في ذلك الوضع المرعب، حيث إن كلاً من الليل الحالك والبحر الهائج والحوت الهائل قد اجتمع واتفق على القضاء عليه فلا ينجيه سبب، ولا يخلصه أحد، إلا من بيده مقاليد الليل وزمام البحر والحوت معاً ؛ لذا توجه إلى مسبب الأسباب وانكشف له سر الأحدية، حتى سخَّرتْ له تلك المناجاتُ الخالصةُ الليلَ والبحرَ والحوتَ معاً، بل تحول له بنور اليقين والتوحيد الخالص بطنُ الحوت المظلم إلى ما يشبه جوفَ غواصةٍ أمينةٍ هادئةٍ تسير تحت البحر، وأصبح ذلك البحر الهائج بالأمواج المتلاطمة مايشبه التنزه الآمن الهادىء، وانقشعت الغيوم عن وجه السماء ـ بتلك المناجات ـ وكشف القمرُ عن وجهه المنير كأنه مصباحٌ وضيءٌ يتدلى فوق رأسه .

هكذا غدت تلك المخلوقات التي كانت تهدده وترعبه من كلِّ صوبٍ وتضيق عليه الخناق، غدت الآن تسفر له عن وجه الصداقة، وتتقرب إليه بالودِّ والحنان، حتى خرج إلى شاطىء السلامة وشاهد لطف الرب الرحيم تحت شجرة يقطين وتشرف ببشارة:[فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ](٦٦)، لما قصَّ الله علينا تلك المناجات المباركة، وصل إلى الهدف من المناجات وهو قوله: [وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ](٦٧)، فلْننظر بنور تلك المناجات إلى أنفسنا،

فنحن في وضعٍ مخيفٍ مرعبٍ أضعاف ما كان فيه سيدنا يونس ـ عليه السلام ـ حيث إن:

ليلُنا الذي يخيَّم علينا، هو المستقبل، فمستقبلنا إذا نظرنا إليه بنظر الغفلة يبدو مظلماً مخيفاً بل هو أحلك ظلاماً وأشد عتامةً من الليل الذي كان فيه سيدنا يونس عليه السلام بمائة مرة ، وبحرُنا هو بحر الكرة الأرضية، فكل موجةٍ من أمواج هذا البحر المتلاطم تحمل آلاف الجنائز، فهو إذن بحرٌ مرعبٌ رهيبٌ بمائة ضعفِ رهبةِ البحر الذي أُلقيَ فيه ـ عليه السلام ـ .

وحوتنا، هو ما نحمله من نفسٍ أمَّارةٍ بالسوء، فهي حوتٌ يريد أن يلتقم حياتنا الأبدية ويقحمَها . هذا الحوت أشد ضراوةً من الحوت الذي ابتلع سيدَنا يونس ـ عليه السلام ـ [٦٨].

فما دام هذه حقيقةَ وضعنا، فما علينا إذن إلا الاقتداء بسيدنا يونس ـ عليه السلام ـ والسير على هديه مقبلين على الله مسبب الأسباب متوجهين إليه بقلوبنا وجوارحنا قائلين:[لا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ][٦٩]، فالخلاصة هي أن القرآن يقول: يا أيها المؤمنون أَلاَ تحتاجون أنتم أكثر من هذا النبي الكريم إلى الالتجاء إلى الله في هذه التحديات المتكررة المتنوعة !!.

إذن الغاية في القصة القرآنية هي تجسيد التصور النظري للإنسان حول الكون من خلال علاج الحياة البشرية علاجاً واقعياً عن طريق عرْضِ المواقف وبيانِ نقطةِ القوة والضعف، بهدف أخْذِ العبرةِ منها .

المطلب الثاني: نظرتان تأريخيتان حول الكون

قبل البدء بالمسألة من ذِكْر الشواهد التأريخية، أودّ أن أُلقِي الضوءَ على الإيمان بالأسباب تأريخياً، هناك صراع بين الإيمان بالمادة، وبين الإيمان بالله وبالغيب .

النظرة الأُولى: إن هذا الكون خاضع ـ في غالب الأحوال ـ لأسبابٍ طبيعيةٍ تتحكم في العالم، وتتصرَّف فيه، وهي الأسباب وخواص الأشياء التي قلما تفارق هذه الأشياءَ، وفي الناس

من اقتصر نظرُه على العالم الماديّ، ورأى أن المسببات والنتائج تابعةٌ دائماً لأسبابها وعللها، ولازمة لها، وليس في الوجود من يحول بين هذه الأسباب وهذه المسببات، ويتصرف فيها بإرادته المطلقة،، لكن هناك فَرْق بين الجاعلين الأسباب إلهاً، فصاروا طبقاتٍ شتى :

فمنهم من ينفي الصانع ويزعم أن تلك الوسائل مؤثرات بالذات كالطبيعيين والمعطلة(٧٠)، وكفَر بكلِّ قوةٍ وراء هذه الأسباب وخواصِّ المادة، وبكلِّ قوةٍ غيبية تسيطر على هذا العالمَ . يذكر القرآن هذه الحقيقة من خلال عقيدة العهد الجاهلي فيقول :[إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ](٧١) ويحكي عنهم فيقول:[وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ](٧٢).

ومنهم من لا ينفي الصانع لكن يزعم أنَّ الصانعَ موجَباً لا مختاراً وأنه خالق بالإيجاب لا بالاختيار، ويجعل تلك الوسائل كلَّها شروطاً إعداديّاً، أي: لا يقدر الله ـ تعالى ـ أن يوجد الأثر بدونها، ولا يقدر أن لا يُوجدها مع تمامها، بل لابد أن يخلق الأثر مع السبب وأن لا يخلقها مع عدمه، وينكرون الخوارق قاطبةً (٧٣)، ويجعلون الأسباب شريكاً لله، وهم الفلاسفة ومن يحذو حذوهم .

ومنهم من يزعم أن بعض الوسائل ـ لا كلَّها ـ خالقٌ وهم المشركون، كما حكى الله عن عقيدتهم بقوله:[إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ](٧٤)، وهؤلاء الفرق الثلاث كفرة مخلدون في النار(٧٥).

تعاونت الفلسفة والشرك على إضعاف الإيمان بالله، وإضعاف رابطة العبد بربه، أما الأولى: فبالإلحاح الشديد على نفي الصفات. وأما الثاني: فبصرف هذه الصفات إلى المخلوقات، فمن آمن بالأُولى لم يرَ حاجةً للإلتجاء والخوف والطمع من هذا الخالق، الذي تجرَّد عن كلِّ صفة، وعن الرحمة والمحبة، ولا يجد في نفسه اندفاعاً للسعي للآخرة. ومن آمن بالثاني تشاغل بالمخلوقات، والالتجاء إليها ولم يرَ حاجةً، أو لم يجد فراغاً للالتجاء إلى ربٍ لا يُرَى بالأبصار. وهكذا ضاعت الإنابةُ إلى الله في قلب الإنسان، وتحوَّلت إلى عبادةِ النفس

والطاغوت والشيطان، وعكف العالَم الإنساني على عبادة أصنام(٧٦)، وحقَّ عليهم كلِّهم قولُ سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ:[أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ](٧٧).أتعبدون ما تنحتون بأيديكم كما هو حال المشركين أو بقلوبكم وتصوركم كما هو حال الفلاسفة .

هذه هي أزمة الإيمان والأخلاق هي كارثة الكوارث ومصيبة المصائب، إن أصل البلاء هو شيء واحد(هو الخضوع للمادة في إرضاء الشهوات) فإذا لم تتغير هذه النفوس التي تعبد المادة وهذه العقلية الخاضعة للمادة، فلن يتغيَّر فساد الأوضاع أبداً؛ لذا أكد القرآن مراراً وتكراراً على معرفة الخالق معرفةً تكسر هيمنةَ سلطانِ النفس والمادة .

النظرة الثانية: هنالك نظرةٌ أُخرى في الكون تعارض النظرة الأولى في الأساس والمنهج: وهي أنَّ وراء هذه الأسباب الطبيعية، والقوى الكونية، والخواص المودَعة في الأشياء، قوةٌ غيبيةٌ تملك زمام هذه الأسباب والخواصَّ، وكما أنَّ هذه الأسباب سبب لهذه المسببات، فالإرادة الإلهية القاهرة سبب لهذه الأسباب نفسها، وتفكُّها من مسبباتها إذا شاءت .أي: أن تلك الوسائل مطلقاً عاديةٌ لا إعداديةٌ، ومظاهرُ لا مؤثرةٌ، وأن لا مؤثر ولا خالق إلا الله، وهذا وسطٌ، وعليه الملل وأهل الحق(٧٨).

المطلب الثالث: المقارنة بين الكافر والمؤمن حول الكون تصوراً

وبعد تلك النظرة السريعة حول الأسباب الكونية، نقارن بين تصور المؤمن الحق وبين تصور الكافر حول الكون .وهذا يستدعي جعْلَ المطلب فرعين .

الفرع الاول: المؤمن في المشهد التأريخي

بحثنا ـ في المبحث السابق ـ عن الوعي العقلي حول الكون، والآن نبحث عن إكمال هذا الوعي النظري. فلا بدَّ لهذا الوعي النظري ترسيخُها وتدعيمُها بالشواهد التأريخية .

وخير دليل على ما ذكرنا ـ أي الإيمان بأنَّ وراء هذه الأسباب الطبيعية، قوةٌ غيبيةٌ تملك زمام هذه الأسباب هي قوة الخالق العظيم ـ هو التأريخ البشري والقصص القرآنية: فلنتسائل : هل في القرآن شاهد على من ينظر إلى الدنيا كوسيلة إلى الآخرة، ولا ينظر إليها كغايةٍ ولا

يطغى جانبٌ على آخر؟!. الجواب: لا ريب أن القرآن مليء بالشواهد التأريخية من الذين نظروا إلى الدنيا نظرة ازدراءٍ في حدِّ ذاتها وجعلوها وسيلةً لرضى الله ـ تعالى ـ في الوقت نفسه .

إذا تأملنا دعوة سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ لقومه ودقة فهمه وإيمانه وهو يلفتُ نظرَ قومه المعاندين المتكبرين إلى حقيقة خلقهم وإلى حقيقة هذا الكون وما فيه يقول لهم:[مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للَّه وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَات طبَاقًا . وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعيدُكُمْ فيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا منْهَا سُبُلًا فجَاجًا][٧٩]. إنه تصورٌ يردُّ أمرَ الكون كلّه، وأمر الحياة والأحياء، وأمْرَ الإنسان والأشياء إلى إرادةٍ واحدةٍ شاملةٍ إلى حقيقة الألوهية التي هي الحقيقة الأساسية للتعرف على حقيقة الإنسان وحقيقة الحياة وحقيقة الكون، وهذه هي الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل، هذه هي الوصلة الإيمانية التي تجعل للنظر في كتاب الكون، والتعرف إليه أثراً في القلب البشري، هذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة وبين الإنسان الذي يعلم ويعرف، وهي التي تهملها مناهج البحث التي يسمونها (علمية)في هذا الزمان فتقطع ما وصل الله من وشيجةٍ بين الإنسان والكون الذي يعيشون فيه . وكل معرفةٍ أو علمٍ أو بحثٍ يقف دون هذه الغاية الحية الموجهة المؤثرة في حياة البشر، هي معرفة ناقصة، أو علمٌ زائف، أو بحثٌ عقيم[٨٠] .

شاهدٌ آخر من القرآن: قصةُ ذي القرنين الذي جمع بين الإيمان بالله، والقوة الفائقة، والذي جمع بين ردِّ كلِّ شيءٍ إلى الله وبين تسخيرِ الطاقات المهيأة للإنسان، والذي استخدم الوسائلَ الموجودة في عصره، فاستخدم كلَّ ذلك ـ بعكس الطغاة المفسدين والفاتحين الظالمين ـ في صالح الإنسان، وفي خدمة البشرية؛ لأنه نظر إلى الكون بأنه دار اختبارٍ:[إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا . فَأَتْبَعَ سَبَبًا][٨١]، لقد اتسعت فتوحاته، وامتدت إلى أقصى الشرق(مطلع الشمس)، وإلى أقصى الغرب(مغرب الشمس)، فكان في كلِّ فتوحاته، صالحاً مصلحاً، منتصراً للحق، ناصراً للضعفاء، قاهراً للطغاة الأقوياء، وكان من مبدئه وخطته:[

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا](٨٢)، وواصل فتوحاته حتى وصل إلى أمَّة تعيش في فجوة من جبلَين، تعيش في خطرٍ دائم من أمَّة همجية وحشيَّةٍ وراء الجبل، يذكرها القرآن بيأجوج ومأجوج، فطلبوا منه أن يحفظهم من هؤلاء المفسدين، وقبل الرجل الصالح طلبهم، ووعدهم ببناء السد، واستغنى بما آتاه اللهُ من الخير الكثير عن أموالهم، ولم يطلبهم الأُجرة مقابل هذا المشروع الجبار بخلاف الملوك الطامعين، بل طلب منهم أن يساعدوه بالسواعد، وما يوجد في بلادهم من الحديد والفلاذ، كما قال ـ تعالى ـ:[قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا](٨٣)، وتهيَّأ السدُّ وتمَّ المشروع، وأمن القومُ الأعداء وراء الجبلَين الشامخَين، والسدِّ المنيع:[فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا](٨٤)، وبعد هذه الإنجازات الضخمة، ما سها وما تكبَّر، ولم يقل:[إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي](٨٥)، بل تجلى الإيمان في الملك الغني، الفاتح للعالَم، وردَّ الفضلَ في كلِّ ذلك إلى الله ـ تعالى ـ بل قال في فقه المؤمن بالآخرة(٨٦):[هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا](٨٧). هذه سيرة الإنسان المؤمن بربه ومؤمن بأن الكون بما فيه خاضع له ـ تعالى ـ ومن هذا المنطلق مؤمن بالآخرة مقرٌّ بالمسؤولية وبضعفه أمام خالقه؛ فلذا رحيم بالإنسانية وبالأمم كافَّةً .

الفرع الثاني : المشهد التأريخي للكافر .

وخير دليل على ما ذكرنا ـ من اعتقاد الكافر بأن الأسباب مؤثر حقيقي ولا يؤمنون إلا ما يقع تحت حواسهم ـ هو التأريخ البشري والقصص القرآنية أيضاً: فلنتسائل: هل في القرآن شاهد على من ينظر إلى الدنيا كغايةٍ ؟!.

الجواب: لا ريب أن القرآن مليء بالشواهد التأريخية من الذين نظروا إلى الدنيا نظرة تقديس في حدِّ ذاتها وجعلوها إلهاً من دون الله ورفضوا اللهَ والآخرةَ من أجلها ـ أعاذنا اللهُ منهـــم ـ ، فلننظر تلامذةَ إبليس الذين تخرجوا من مدرسته رافضين للوحي مفلضين العقل عليه، كثيرون في كلِّ عصرٍ ومصرَ، وينكرون وجود الله لأنهم لم يدركوه بحواسهم ولم يروه بأعينهم ورموا المؤمنين بالضلال والخرافة وعدم العلم . يقولون نريد أن نرى الله جهرةً:[وقَالَ الَّذِين لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا][٨٨]. الذين تعوَّدوا المحسوسات يصعب عليهم الإيمان بإله لا تُدركه الأبصار، فطلبوا أن يروا اللهَ جهرةً: [نَرَى رَبَّنَا]، ولكن مَن هم الذين يريدون أن يروا الله ـ تعالى ـ ؟!! هم :[الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا]، إنهم الذين يتصورون أن الحياة الدنيا هي كل شيء وليس وراءها إلا العدم يريدون أن يَروا الله جهرةً [٨٩]. وسبب إنكارِهم ـ لما لا يَرى ـ الاستكبار:[لَقَدِ استَكْبروا فِي أَنفُسِهِمْ].

فلننظر إلى شواهد القرآن في هذا المجال منها قول أحد فراعنة مصر الذين ساموا قومهم سوء العذاب، كان يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، هو الذي قال يوماً (أنا ربكم الأعلى) بنفس المنطق المعوج كما حكى لنا القرآن: [وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ][٩٠]، يا أصحاب العقول ويا أولي النهى إن كثيراً من المخلوقات في حياتكم الدنيا لا تُرَى، فكيف بخالقها وبارئها . هذا صنفٌ من البشر قديمٌ لهم إخوةٌ في عصرنا الحاضر نهلوا من العلم المادي، فغاص الواحد منهم في أعماق البحار، وصعد إلى عنان السماء لكنه ما زال يعبد حجراً أو وثناً أو بحماً أو ناراً أو حتى بقراً، وينكر الإله الخالق، ويقول ـ وقد صعد إلى القمر ورأى من آيات الله ما رأى ـ بحثتُ عن الله فلم أجده : [كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا][٩١]. إن وجود الله لدى العقل السليم أوضحُ الواضحات، فإن الأشياء الثابتة في هذا الكون يمكنك أن تُقيم عليها دليلاً أو دليلين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة، ولكن وجود الحق ـ سبحانه ـ لا تقف الأدلة عليه عند حدٍّ، فلا يقال: إن له مائة دليلٍ

أو ألفُ دليلٍ أو عشرين ألف دليلٍ، فإن كل شيء في الوجود دليلٌ عليه وموصلٌ عليه، فإن من صادم برهاناً واضحاً حكمنا عليه بالاختلال والاعتلال، فكيف من خالف ما لا يُحصى من البراهين؟!!(٩٢).

والميزة الطبيعية المترتبة على إنكار الخالق هي نسبة التأثير إلى الأسباب لا إلى الخالق، ولم يردَّ الفضلَ إلى الله ـ تعالى ـ بل يقول مثلاً:[إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي](٩٣)، ويترتب على هذا الإنكار رفضُ الآخرة [وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً](٩٤)، المؤدية إلى آثار سيئة من التمتع بالحياة الدنيا، وإخلاده إلى هواه(٩٥):[وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ](٩٦).

والنتيجة المشؤومة التي تترتب على هذا الإنكار، هي أن هذه الحياة الدنيا هي كلُّ شيءٍ:[إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ]، ومن نتيجة ذلك، أن الحياة أصبحت تتميز باللهو واللعب، وتنقلب الموازين، وجعلوا اللعب غاية لذاته، ومن العجيب أن اللعب ـ على تنوُّعه ـ صار له قانون الجدِّ ولا يمكن أن يخرقه أحدٌ دون أن يُعاقَب؛ لأن الحَكَم يرقُب المباراة، وإذا تناسى الحَكَم أمراً ولو خطأً هاجَ الجمهورُ. ونتساءل: لقد نقلتم قانون الجدِّ إلى اللعب، فلماذا تركتم الجدَّ بلا قانون(٩٧)؟!! يا مَن:[الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا](٩٨).

ومن خصائص إنكار الآخرة : العلو والاستكبار:[إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ](٩٩)، ومن هذا المنطلق ليس مؤمناً بالآخرة غير ساعٍ لها غير مقرٍّ بضعفه وبالمسؤلية أمام الخالق، فليس رحيماً بالإنسانية وبالأمم الضعيفة(١٠٠).

ومثل هذه الأمة، المنكرة للآخرة، المؤمنة بالمادية، يكون بطشُها شديداً، وفتحُها إذلالاً للعباد، وتدميراً وإفساداً للبلاد: [وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ](١٠١)، [إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ](١٠٢).

والميزة الطبيعية لإنكار الخالق هي: أن تُؤثِرَ المنافع الشخصية على المبادئ وعلى القِيَم وعلى الأخلاق، وكانت هذه الخصلة السيئة عامةً في تجار مدين، وقد خاطبهم نبيُّهم شعيب ـ

عليه السلام ـ، وضرب على هذا الوتر الحساس:[أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ](١٠٣)، ومن النتيجة الحتمية الناتجة من التوغل في الماديات هي أن تفقد الفطرة البشريةُ أصالتها ونظافتها، وقد بلغت أمةٌ الذروةَ في الانحطاط الخُلُقي، ويخاطبهم نبيُّهم لوط ـ عليه السلام ـ فيقول:[أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ](١٠٤)، وقال أيضاً:[أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ](١٠٥).

إن الذين تعوَّدوا المحسوسات يصعب عليهم الإيمان بإله لا تُدركه الأبصار، لذا يخضعون بسرعة لتقديس مادة أيًّا كان شكلها تسليةً لعواطفهم، وكان سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ نشأ في قوم من هذا القبيل، وقد حكى الله عنهم فقال:[وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ](١٠٦)، قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام (آلهةً)؛ لأن الإلهَ هو من ينزلُ منهجاً يُحدِّد من خلاله كيف يُعبَد، ولم تقل الأصنامُ لهم شيئاً، ولم تُبلغهم منهجاً، إذن فالقياس المنطقي يُلغي تصوُّرَ تلك الأصنام كالآلهة، فلماذا عبدوها؟! لقد عبدوها؛ لأنَّ الفطرةَ تُنادي كلَّ إنسان بأن تكونَ له قوةٌ مألوهٌ لها، والقوةُ المألوهُ لها إن كان لها أوامر تُحدُّ من شهوات النفس، فهذه الأوامر قد تكون صعبةً على النفس، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهي فهذه آلهةٌ مُريحةٌ لمن يخدعُ نفسه بها، ويعبدوها مظنَّةَ أنها تنفع وتضرُّ (١٠٧).

وكم في الفلسفة اليونانية التي تعتبر جوهراً للعقل الإنساني من نصيب لعلم الأصنام والأساطير. وكانت المدنية الرومية نموذجاً مثالياً لهذه المدنية المادية التي كانت الحياة تدور حولها

في أروع أشكالها. وكذلك مصر، والشام، وإيران، والعراق، واليونان مركزاً لهذه المدنية المادية بخصائصها الفطرية التي تحدثنا عنها (١٠٨).

وهذا هو حجةُ كلِّ مستكبرٍ ومعاند عبر التأريخ، ولا يزال الأمر كما كان. هذه سيرة الإنسان الكافر بربه والكافر بأن الكون بما فيه خاضع له ـ تعالى ـ ، لعل القارئَ يحسب أن هذه الصورة والخصائص لا تنطبق إلا على المجتمعات القديمة والحضارات البائدة أو على المجتمع الشيوعي الموسوم بالمادية، وإنَّ المجتمعات الحديثةِ غير الشيوعية بعيدةٌ عن هذه الداءات، والواقع الذي يفرض نفسه عند عدم معرفة الإنسان بحقيقة الكون هو نفس الواقع الذي كان سائداً في المجتمعات القديمة والموسومة بالمادية، أيّاً كان اسمُ تلك المدنية ونهجُها.

لو نظرنا إلى العالم الغربيِّ الذي يتباهى بإلحاده تحت ظل الشعارات البراقة من الحرية وحقوق المرأة وحقوق الإنسان لنرى مظاهر المادية الجامحة سافرةً فيها التي كانت الحضارات القديمة خاضعةً لها وتؤمنون بها، وتجلَّى إنكارُ الخالق وعدم الحساب للبعث والحساب في جميع مجالات الحياة الغربية، فاتخذت في الاقتصاد صورة الرأسمالية والطماع اللامحدود، وفي السياسة صبغة الاستعمار والسيطرة على البلدان، ونرى كيف تنسحق إنسانية الإنسان سحقاً ؟، وكيف وصلت إلى الحيوانية الكاملة في كلِّ شيء؟، في الأخلاق نرى هذه الإباحية الأخلاقية التي تدنَّس وجهَ الأرض، وفي السياسة نرى هذه المذابح البشرية في كل مكانٍ التي تحوَّلت بالإنسانية إلى مملكةِ الغابة يأكلُ فيها القويُّ الضعيفَ. هذا الصراع الفتاك على متاعٍ حسيٍّ، إنما هو إنكارٌ للخالق الرقيب وخضوعٌ لإلهِ الأجزاء الكونية ألا وهو إلهُ اللذة والمادة، فتجلتْ ألوهيةُ المادة وعدمُ فنائها في الحضارة الحديثة بوضوح لا مراء فيه .

إذن نظرة الحضارة القديمة في الكون إنما هي من أجلِ اللذة والمادة، ونظرة الحضارة الأمم الحديثة للكون إنما هي من أجل اللذة والمادة أيضاً، ورؤيتهما للكون متساويتان، وربما الخلاف ليس إلا عن طريق الوصول إليهما أحياناً .

وتجلى بوضوحٍ حاجتُنا إلى التربية القرآنية في تعريفِ الكون بأن الكونَ ليس للتمتُّع فحسب بل لتعريف خالقه ومعرفةِ تجلياتِ آثار صفاته، إذ يحدثنا القرآن عن أمة حاق بها الهلاك والدمار إلا ويُخبرُنا بأن من أسبابِ ذلك الدمار عدمَ رشدِ الأمة إلى تعرُّفِ الكون وحقيقته، فانبثقت من ذلك أسبابُ الحيرة وعدمُ الاطمئنان في حياتها، وتلك هي حاجة الإنسان إلى الإيمان وذوقِ طعمه بوجود إله واحد خالق لهذا الكون، مسيِّرٍ لنظامه وقيُّومٍ على كلِّ شؤونه، أي: إن الله ـ عز وجل ـ ما ألزم عباده بأن يعرفوه ويستيقنوا بوجوده، إلا ليهديهم من خلال ذلك اليقين إلى معرفة أنفسهم في هذا الوجود، ومعرفةِ الحياة ومعرفة الكون بأنه دارُ اختبارٍ لا دارُ بقاءٍ أبديٍّ، وينبههم من آثار التعود على المادة، فيعيشون في ظل عبودية الله، فيعرفون بذلك قدْر الاستفادة من طاقاتهم وإمكاناتهم، ومن المكونات المسخرة، ثم يسعون إلى ذلك في ظل من التآلف والإخاء، وإلى إرضاء الله ـ تعالى ـ .

وإذا تأملنا خطاب القرآن للإنسان وما يتضمنه من تبصرة وإرشاد وتعليم، رأينا ذلك كله يدور حول محور هذا الهدف، إذن الإيمان بالله الذي ذاق طعمَه صاحبُه هو الشرط الأساس لإصغاء التعاليم القرآنية ويَتعرَّف الإنسانُ من خلاله على معرفةِ ذاته والحياة التي يتمتع بها والكون المحيط معرفةً حقيقية(١٠٩).

هذا. ولا يقف القرآن في تعريف الكون عند حدِّ الدلائل العقلية والتأريخية بل تجاوز إلى الإثارة الوجدانية وهذا ما سنباشره بالبحث في المبحث اللاحق ـ إن شاء الله ـ تعالى ـ ـ .

المبحث الثالث: الإثارة الوجدانية

ذكرنا ـ سابقاً ـ لا يمكن تحويل القناعة الذهنية في أيِّ مجال إلى الواقع العملي بمجرد الدليل العقلي، إذ هو وحده لا يقدر أن يكسب ثقة النفس ما لم يدعمه شاهد من الواقع يصدقه وذلك هو التأريخ بأحداثه وعبره، و التأريخ وحده ـ ولو كان فيه أهمية كبرى في مجال التربية ؛ إذ الانسان مفطور على التأثر بالغير ـ لكن لا يسيطر على النفس بالقيادة والتوجيه ما لم تدعمه الحرارة الوجدانية فلا بدَّ من هذه الوسيلة التربوية الدافعة لتربية الإنسان إلى معرفة الكون الذي يعيش فيه، من المعلوم أن الإثارة الوجدانية لا تكون عملاً تربوياً سليماً إلا إذا أريد منها إخضاع النفس لحقائق علمية صحيحة أو لمبادئ خلقية سليمة فإثارة الوجدان إذن طريقٌ تربويٌّ إلى غاية تربوية أوعلمية وليست هدفاً تربوياً مستقلاً بذاته (١١٠).

ليس المهم في إستعمال هذه الوسيلة كأداة للتربية ؛ إذ ليست هي وسيلة حسنة مطلقاً بل لها أخطارها الجسيمة إذا أُسيءَ إستعمالُها كما أنَّ لها فوائدَها العظيمة إذا أُحسن إستعمالُها وإنما المهم في معرفة الطريقة التربوية التي يجب أن يتم صياغة الإثارة الوجدانية على أساسها، وللقرآن منهج دقيق في ذلك يمكن أن يلخص فيما يأتي :

المطلب الأول: المنهج القرآني في إستعماله لهذه الوسيلة

التربية الإسلامية يجب أن تكونَ جامعةً بين تحريك الإيمان في نفوس المخاطبين وإثارةِ الشعور فيها، وبين إكمال الوعي العقلي بحثنا عن الوعي العقلي وتدعيمها بالشواهد التأريخي فلابد من إثارة الشعور لكن قبل ذكر الإثارة الوجدانية نذكر المنهج القرآني في استعمال هذه الوسيلة من خلال مراعات الأمور الآتية :

أولاً: أن لا تكون غالبةً على قرارات العقل بل يجب أن تكونَ خادمةً له أي: لابدَّ أن يسبق حكمٌ موجهٌ إلى العقل أولاً ثم جيء بحكمٍ ثانياً يثير الوجدان دافعاً إلى الالتزام بالحكم الأول .

ثانياً : يعتمد القرآن في الإثارة الوجدانية قدْرَ الإمكان على التصوير والتخييل لا على المحاكمة العقلية ويعتمد من خلال هذا التصوير تفعيل جميع المدارك بحيث يوقع الانسانَ في

مشهد مدركاً بجميع أحاسيسه بحيث يرى بصرُه المشهدَ متخيلاً، وسمْعُه تخيَّل صوتَه وبعاطفته يفـرح أو يحزن ثم العقـــل يتأمل (١١١).

ثالثاً : يعتمد على مزيج متكافيء من العناصر الوجدانية بدلاً من أن يركز على عنصر واحد من الخوف أو الفرح أو الحب؛ لأن البشارة وحدها تؤدِّي إلى الغرور وعدم الالتزام كما أنَّ الخوف وحده يؤدِّي إلى اليأس والقنوط فبجمعهما تحصل الحالة النفسية المزيجة من الخوف والطمع(١١٢).

مثلاً قال ـ تعالى ـ :[فَلْيَنْظُرِ الْاِنْسَانُ الَى طَعَامه . أَنَّا صَبَبْنَا صَبّاً . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً . فَأَنْبَتْنَا فيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً . وَزَيتُوناً وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْباً . وَفَاكِهَةً وَأَبّاً . مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ . فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخيه . وَأُمِّه وَأَبيه . وَصَاحِبَته وَبَنيه . لِكلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ شَأْنٌ يُغْنيه . وُجُوهٌ يَوْمَئذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ](١١٣).

فلنتأمل هذا النص القرآني العظيم، كيف يبدأ بإثارة العقل وتنبيهه الى الحقيقة العلمية والفكرية ثم يثير الخوف والتحذير في النفس خادمةً لقرار العقل كى لا تتمرد على حكمه وقراره فدعانا القرآن أولاً إلى الإيمان بقدرة الله ـ تعالى ـ في تدبير أمورنا المعاشية: [فَلْيَنْظُرِ الْاِنْسَانُ الَى طعامه .... مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ] . وإلى الإيمان بمراسم القيامة:[فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ .... لِكلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ شَأْنٌ يُغْنيه]، فلننظر ثانياً كيف يؤيد هذا القرار الموجَّه إلى العقل بإثارة وجداننا مزيجاً من الخوف والرجاء؟:[وُجُوهٌ يَوْمَئذٍ مُسْفِرَةٌ ..... وَوُجُوهٌ يَوْمَئذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ]، فلم يكتف بالتبشير حتى لا يؤدي الى التقاعس وعدم الإلتزام أملاً به، إذ عدم الخوف من العقاب يسيء الأدبَ، ولم يكتفِ بالتنذير وحده حتى لا يؤدي إلى اليأس قنوطاً منه (١١٤).

المطلب الثاني: الإثارة الوجدانية في تعريف الكون

ن شروط نجاح الإثارة الوجدانية كونُها خادمةً للعقل، أي: لابدَّ أن يسبق حكمٌ موجهٌ إلى العقل أولاً ثم جيء بحكمٍ ثانياً يثير الوجدان دافعاً إلى الالتزام بالحكم الأول فقد أرسى القرآن هذه القاعدة في كثير من الآيات وبأسلوبٍ متنوع عند الحديث عن الكون، وهذا يتطلب أن نقسم المطلب إلى فروعٍ :

الفرع الأول: كونٌ مربوبٌ طائعٌ

القرآن لا يكتفي بالدليل العقلي الكوني على وجوده ـ تعالى ـ وتجليات آثارِ صفاتِه العلية، بل أضاف إليه الدليل الوجداني ليثير مشاعر الإنسان، من خلال هذا الكون الفسيح المربوب الطائع الذي يسجد ويسبح بحمد الله، ويطيعه طاعة لا تعرف معصية، ليت البشر يشارك الكون في هذه الطاعة التي تقر له ـ سبحانه ـ، ولا عجَبَ في ذلك، أليس الله خالقَه و مالكَه المتصرفَ فيه؟ ومن البديهيِّ أنَّ الذي يخلق يملك، ومن يملك يحكم ويأمر وما في ذلك من شك(١١٥) ولذلك تعجب القرآن من شرك الإنسان، يقول المولى ـ سبحانه ـ: [قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ] (١١٦).

أرأيت العبودية الكاملة والطاعة لله رب العالمين؟ حين قالتا: [أَتَيْنَا طَائِعِينَ] فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قال لهما استجيبا لأمري طائعتين أو مكرهتين، قالت السماوات والأرض: أتينا أمرك طائعين (١١٧).

وهذه العبادة والخشوع من قِبَل الكون غير العاقل مسبوقة بحكمٍ عقلي هو الإيمان بالخالق وعدم الكفر به:[قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ...]. (١١٨) ففيها إثارةٌ لشعور الإنسان المقصود بالهداية والترغيب والترهيب له معاً،

أي: في هذا عبرةٌ للإنسان بحيث يُرهَب من عدم موافقته لباقي الكائنات ويختار التمردَ وعدمَ الإلتزام، ويُرغَّب إن وافق معها في الانقياد والطاعة.

الفرع الثاني: كونٌ يُسبِّح:

إن المسلم حين يتصور هذا الكون وهو خاضع لله ـ تعالى ـ خاشع له يأمره فيأتمر يحس بقصوره في عبادة ربه، وفي نفس الوقت يشعر بسعادة تغمر القلب، إذ يعيش كوناً صديقاً، كله استسلام للرب ـ تبارك و ـ تعالى ـ ـ، و نحن معه مستسلمون لا يعادينا ونعاديه، لأننا معه تسبيحاً وتحميداً[١١٩]، قال ـ تعالى ـ: [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ] [١٢٠]، هذه الآية مسبوقة بآية: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ][١٢١]، التي حذرنا القرآن فيها من خذلان الكفر وسوء عاقبته، وإلى الإيمان بقدرة الله ـ تعالى ـ في الحساب وهذا حكمٌ موجَّهٌ إلى العقل أولاً. فلننظر ثانياً كيف يؤيد هذا القرار الموجَّه إلى العقل بإثارة وجداننا مزيجاً من الخوف والرجاء؟وقال:[تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا] [١٢٢]. يا له من تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحانيةً تسبحُ لله !!. وفي هذا عبرةٌ للإنسان بحيث يُرهَب من عدم موافقته لباقي الكائنات ويختار التمرد وعدم الإلتزام، ويُرغَّب بالموافقة معها في الانقياد والطاعة .

والرعد يسبح بحمده ـ سبحانه ـ:[وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ][١٢٣]، والجبال مخلوقات جامدة يسبح بحمده:[وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ][١٢٤]، وذلك تسبيح حقيقي، يعلمه الله ونحن لا نعلمه [١٢٥]، إلا من علّمه الله من فضله كسيدنا داوود ـ عليه السلام ـ كما قال ـ سبحانه ـ: [إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ][١٢٦].

ألا ليت الجاحد يشعر بقسوة قلبه وغلظة فؤاده، ليته يستشعـــــر قول الحق تبارك و ـ تعالى ـ:[ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ][١٢٧]. ليته يشارك الحجرَ هذه المشاعرَ وهذه الخشيةَ من الله:(وهذه الخشية للجمادات إنما تكون عن علم بعظمة الذي يخشى منه)[١٢٨]. ومن هذا القبيل قوله ـ تعالى ـ:[لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] [١٢٩]، وقوله ـ تعالى ـ:[فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا][١٣٠]، فاندك الحجر الأصم من خشية الله لكن الإنسان ابي واستعلى !![١٣١].

الفرع الثالث: كونٌ يسجد:

إذا كنا قد عشنا مع الكون في تسبيحه لله رب العالمين، فإنه أيضا يسجد له، كمـــا قـال ـ تعالى ـ: [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ] [١٣٢]. هذه الآية مسبوقة بآية فيها الأحكام الموجَّهةُ إلى العقل، وهي قوله ـ تعالى ـ:[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ][١٣٣] دعانا القرآن أولاً إلى الإيمان بقضائه في القيامة بين الملل وهذا حكمٌ موجَّهٌ إلى العقل: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ....]، ثم يؤيد هذا القرار الموجَّه إلى العقل بإثارةِ وجداننا مزيجاً من الخوف والرجاء، بقوله: [أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ...] فسجد ما في السماوات والأرض من خشية الله لكن الإنسان ابي واستعلى !! وهذا السجود للجمادات إنما تكون عن علم بعظمة الذي يسجد له،

فجعل كل ما في الوجود يسجد لله، أي يطيعه عموماً، وأما الناس فقد قال عنهم (وكثير) أي: يسجدون ويطيعون (وكثير) أي: آخرون أيضاً يعصون ولا يسجدون[١٣٤]. هذا كونٌ يُدرِك ويطيع ويخشع ويسبح و يسجد ولا يعدل عن وظيفته إلا الإنسان، قال ـ تعالى ـ: [وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ][١٣٥] (أي: وتسجد ظلالهم لله ـ سبحانه ـ)[١٣٦]، وذلك يشمل ظل الإنسان مؤمناً كان أو كافراً أي:(ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره)[١٣٧].

الفرع الرابع: كونٌ يتألَّمُ:

قال ـ تعالى ـ: [وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا][١٣٨]. فأخبر ـ سبحانه ـ عن تغيُّظ السماوات والأرض والجبال، وعن شدة غضبها لأجل الله ـ تعالى ـ، بسببِ ما نُسب إليه مما لا يليق بكمال الربوبية[١٣٩]، حذرنا القرآن أولاً في الآية السابقة من فضاحة الشرك:[وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا] وهذا حكمٌ موجَّهٌ إلى العقل. فلننظر ثانياً كيف يؤيِّد هذا القرار الموجَّه إلى العقل بإثارة وجداننا مزيجاً من الخوف والرجاء؟ وقال:[تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا]، أرأيت ما أصاب الجبال الرواسي عند سماعهن الشرك؟ هل كنَّا نصدق ذلك لولا وحي السماء؟ أكنَّا نتصور هذا الغضب والغيرة من ضمير الكون عند سماع هذه المقولة ؟!، وهذا الإنكار للجمادات من السماوات والأرض إنما تكون عن علمٍ بعظمة الذي يتألمان من نسبة الظلم العظيم إليه ألا وهو الإشراك به ـ تعالى ـ:[إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ][١٤٠]، وفي هذا عبرةٌ للإنسان بحيث يُرهَب من عدمِ موافقته لباقي الكائنات في توحيد الله ويختار التمرد والشرك، ويُرغَّب بالموافقة معها في التوحيد وتفويضِ تدبيرِ الكائنات إلى الله الواحد الأحد[١٤١].

وهكذا فإننا نجد من خلال هذا التصور للكون أن المولى ـ سبحانه وتعالى ـ استدل على وجوده بمخلوقاته، وعلى صفاته بآثار خلقه كما نجد أن القرآن صحح تصوراتنا الساذجة عن الكون وما فيه فبيّن لنا أن الكون ـ وما فيه من خلقِ الله ـ مربوبٌ طائعٌ ساجدٌ مسبِّحٌ خاشعٌ لله، بأسلوبٍ مؤثرٍ ونهجٍ فريدٍ، فيه من الدلالة ما يثير المشاعر ويهزها(١٤٢).

وبالتالي هذا هو الفارق الأساسي بين القرآن وبين الفلسفة البشرية في توجيهِ الإنسان حول الكون وهو السر في إخفاق الفلاسفة وعلماء الاجتماع والأخلاق في تحرير الإنسان من غروره بالكون؛ إذ حصيلة بحوثهم تلتقي على توجيه الإنسان إلى ما هو الواجب أو الأفضل في نظر أصحاب هذه البحوث في شأن الكون فهي بحوث توجيهية صادرة عن أُناسٍ مثلنا فإنه أضعف من أن يتغلب على سلطانِ الحرية الهائجة في الإنسان إذ أفكارُ علماء الاجتماع والفلسفة إذا كانت تدعو الإنسانَ إلى السلوك الأفضلِ منْ وجهةِ نظرهم في التصرف بالأجزاء الكونية فإن حريته التي يستشعر سلطانَها في داخلِ كيانه هي الأخرى تدعوه إلى ما ترى أنه السلوك الأفضل من التمتع بالمكونات الكونية والإنسان إنما يستجيب في هذه الحالة للتوجيه الداخلي من ذاته أكثر من أن يَصغَى ويستمعَ للنصائح التي تأتي من خارجِ كيانه(١٤٣).

أما القرآن يركِّز أولاً على تفهيم الإنسان بتعريف الكون بأن الكون وما فيه من خلق الله مخلوق لا خالقٌ مربوب لا ربٌّ طائع لا مطاع ساجد لا مسجود له مسبِّح لا مسبَّح خاشع لله بأسلوب مؤثر فإذا ثبت هذا اليقين يتأثر الخطاب الديني القرآني أكثر مما في كيانه من مشاعر. فإن أوَّل آثارِ هذا اليقين هو تقليلُ غروره بالقدرة التي يتمتع بها وبالكون الذي يعيش فيه ولا يظن أنه لابد أن يمارس حريته إلى أقصى الحد وبالتالي فلا يتصور أن الكون أبديٌّ لا يُفنى فينهمك في الشهوات انهماك البهائم؛ إذ يُدرك المسؤوليةَ في تصرفاته أمام خالقه(١٤٤).

بعد هذا العرض الموجز من منهج القرآن في تربية الإنسان حول توصيف الكون له، فلْننظر ... ولْنقس ولْنحلل الظواهر والأسباب ولْنتأمل حالة الدول الإسلامية وشعوبها قديماً

وحديثاً نجد الأمر تابعاً بدقة لهذا المقياس من رؤيتها إلى الحياة والكون، فهي بمقدار ما تبتعد عن تبصرة هذا الكتاب الرباني تتعرض لهذا الضلال الذي تعصف بالمجتمعات الغربية من الوباء النفسي والفساد الأخلاقي وبمقدار ما تقترب إلى ضياء هذه التبصرة القرآنية تنال وقايةً من تلك الآفات.

الخاتمة:

نهاية هذه الجولة الممتعة والشاقة ـ في آنٍ واحد ـ مع هذا الموضوع الحساس الدقيق، بودِّي أن أقدِّم أهم النتائج التي توصلتُ إليها :

١ـ للقرآن منهج تربوي فريد مبني على أسسٍ ولكلِ أُسسٍ منها منهجٌ دقيق لا نرى في غير كتاب الله ـ تعالى ـ، استعان القرآن بالعقل والوجدان معاً لخضوع النفس لقراراته؛ إذ العقيدة لا تدفع صاحبها إلى السلوك الملائم إلا إن استقرَّتْ يقيناً بالعقل، ثمَّ فاضت منه عاطفةً ووجداناً على الفؤاد . كثيرون هم الذين يُضحُّون بكلِّ شيءٍ في سبيلِ ما يُحبُّون أو حذراً مما يخافون؛ إذ سلطان العاطفة غالب ولكن قليلٌ جدًّا أُولئك الذينَ يُضحُّون في سبيل ما يعلمون؛ إذ سلطان العقل وحده ضعيف على توجيه النفس .

٢ـ رأينا خطاب القرآن للإنسان وما يتضمنه من تبصرة وإرشاد وتعليم، يدور حول محور واحد هو ضرورة الإيمان بالله إيماناً يذاقُ طعمُه؛ إذ ذاك الإيمان هو الشرط الأساس لإصغاء التعاليم القرآنية ويَتعرَّف الإنسانُ من خلاله على الكون معرفةً حقيقيةً. ثم التأمل في المشاهد الكونية ليس مقصوداً لذاته وإنما غايته الوصول إلى معرفة الخالق وإلى تجليات أسماء الله وصفاته في صفحات الكون وبالتالي إصلاح القلب البشري وفكرِه من خلال العبرة بتلك التجليات .

٣ـ الأثر العقلي المترتب من هذه العقيدة هو أن العالم كله تابع لمركزيةٍ ونظامٍ واحد، ثم بعد هذه العقيدة يستطيع الإنسان أن يأتيَ بتفسيرٍ كاملٍ صحيحٍ للكونِ متناسقٍ كلٌّ من مكوناتها على اختلاف أشكالها وحقائقها.

٤ـ لا تعارض في القرآن بين الآيات التي تحدثت عن الكون، وإذا حدث تعارض ـ في الظاهر ـ بين الآيتين أو بين طائفتين من الآيات، فلابد من البحث والتزام المنهج الذي يجب اتباعه في تفسير نصوص القرآن والوقوف على مقاصدها، ومن أبرز قواعد هذا المنهج أن لا يفسر أيٌّ من الطائفتين من الآيات إلا في ضوء الطائفة الثانية، فلا يجوز التأمل في معنى أيٍّ منهما بمعزلٍ عما تدل عليه الطائفة الأخرى، إذ كلٌّ من الطائفتين فيها ردٌّ لفكرةٍ منحرفةٍ وبجمعها تبيَّن حدٌّ وسطٌ لا يمكن تحقُّقُه إلا في ظلِّ عبوديةِ الله والخشوعِ له .

٥- هداية البشر الى دين الله من خلال التعريف الدقيق للحياة الباعثة إلى الالتزام بأحكام الشريعة في شؤون الحياة وبالتالي بلوغ مرضاته ـ تعالى ـ .

والحمد لله في البدء والختام

الهوامش

١) القرآن الكريم .

(٢) منهج تربوي فريد في القرآن الكريم : د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، سورية، ط٢، دون سنة الطبع : ١٩ . أصول التربية الاسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع : د. عبدالرحمن النحلاوي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط ٢٣،١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م : ١٨٨ ـ ١٨٩

(٣) لتفصيل تعريف الحياة يمكن الرجوع إلى: دائرة معارف القرن العشرين: محمد فري وجدي، دار المعرفة، بيروت، لبنان : ٣ /٦٥٨، ٦٥٩ . معجم لغة الفقهاء: د. محمد رواس قلعةجي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٣هـ=١٩٨٨م: ١٨٨، ١٩٠ .

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧ .

(٥) سورة النساء، الآية : ٨٢ .

(٦) ينظر : المختار من كنوز السنة: د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، ط٢، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م : ٨٩ . ينظر : منهج الحضارة الإنسانية : د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٧، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥ م : ٤٢ إلى ٤٩ .

(٧) الكون هنا مصدر بمعنى اسم المفعول، فهو بمعنى المكوَّن، والمقصود به كل ما عدا الإنسان من المظاهر الكونية التي نراها من حولنا . منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم :٨١ .

(٨) ينظر: لسان العرب:محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٣٨٠هـ= ١٩٥٩م: ٣٦٣/١٣، والقاموس المحيط: مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت ، ط١، ١٤١٥هـ=١٩٩٥م: ٢٦/٤ . الصحاح: الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م: ٢١٩٠/٢ . المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، دار الفكر، بيروت: ٨٠٦/٢ . دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت، لبنان: ٢٤٢/٨-٢٤٣.

(٩) ينظر: رسالة أهل الثغور: الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، تحقيق محمد السيد، دار اللواء للتوزيع والنشر، الرياض، ط٢، ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م: ٦٢. المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين: الآمدي، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٤٠٨هـ١٩٨٧م: ٩٣.

(١٠) ينظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٧، ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م: ٨٠.

(١١) سورة الروم، الآية: ٢٧.

(١٢) ينظر: المواقف وشرحها: عضد الدين عبدالرحمن الإيجي، وشرحها: السيد شريف علي بن محمد بن علي الجرجاني، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م: ٤/٨ . نهاية الاقدام في علم الكلام:أبو الفتح محمد

عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق: الفرد جيوم، مكتبة الزهران، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٩م: ١٥. المقاصد وشرحها: سعدالدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م: ١١٢/٢ . نظام الإسلام: د.مصطفى ديب البغا، دار المصطفى، دمشق، سوريا، ط٤، ١٤٢٧=٢٠٠٦م: ٢٣.

(١٣) سورة النحل، الآية: ١٦.

(١٤) سورة الطور، الآية: ٣٥.

(١٥) المواقف: ٤/٨ . تفسير سورة الإخلاص: الشيخ عبدالله سراج الدين، مكتبة دار الفلاح، حلب، سورية، ط١، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م: ص٢٣ . أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع: ١٨٢.

(١٦) سورة الفرقان، الآية: ٢.

(١٧) سورة الحج، الآية: ٥.

(١٨) سورة النور، الآية: ٤٣.

(١٩) سورة يس، الآيات: ٧١- ٧٣.

(٢٠) سورة الاعراف، الآية : ١٠.

(٢١) سورة الجاثية، الآية : ١٢.

(٢٢) تفسير البيضاوي: ٧١/١.

(٢٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٣.

(٢٤) ينظر: منهج الحضارة الإنسانية: د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، الإعادة السابعة، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م: ٨٣، ٨٤ . نظام الإسلام: الشيخ مصطفى ديب البغا، دار المصطفى، دمشق، سوريا، ط٤، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦ م :٢١ . أصول التربية الإسلامية: ٣٨،٣٧.

(٢٥) سورة الصافات، الآية: ٦.

(٢٦) سورة الحج، الآية: ٥.

(٢٧) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.

(٢٨) سورة طه، الآية: ١٣١.

(٢٩) سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٣٠) سورة القصص، الآية : ٨٨.

(٣١) سورة الرحمن، الآيتان : ٢٦- ٢٧ . سورة آل عمران، الآيتان: ١٤-١٥ . سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦-١٩٧ سورة الأحقاف، الآية: ٢٠ .

(٣٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٣٣) سورة هودن الآية: ٦١.

(٣٤) ينظر: منهج الحضارة الإنسانية: ١٠١.

(٣٥) ينظر: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم: ٩٣. القرآن الكريم رؤية تربوية، زهير محمد شريف كحالة، دار الفكر، عمان، الأردن، ط١، ١٤٠٣هـ=١٩٨٢م: ١٤٤/١. الطبيعة في القرآن الكريم: د.كاصد ياسر الزبيدي، دار الرشيد للنشر- بغداد- العراق، ١٤٠١هـ=١٩٨٠م: ٥١. الشخصية الإسلامية دراسة قرآنية: د. عائشة عبدالرحمن بنت الشاطئ، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط٢، ١٣٩٨هـ=١٩٧٧م : ١٥٩. موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الشيخ مصطفى صبري، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٩هـ=١٩٥٠م: ١٣/١-١٤.

٣٦) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم : ٨١ إلى ٨٨ . الإسلام ملاذ كل مجتمع، لماذا، وكيف؟: د. محمد سعيد رمضان البوطي،دار الفكر، دمشق، سورية، ط٢، ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م: ٣١ إلى ٥٩ . التعرف على الذات هو الطريق المُعبَّد إلى الله : د. محمد سعيد رمضان البوطي،دار الفكر، دمشق، سورية، ط١، ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨ م: ٩١ إلى ١٠٣ . الدين والفلسفة: د. محمدسعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، دمشق، سورية، ط٢، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م: ٩٣. ٩٤ .

٣٧) سورة الأعراف، الآية: ٨٤ . النمل: ١٤ و ٥١ .

٣٨) سورة يونس، الآيتان: ٣٩ و ٧٣ .

٣٩) سورة الأعراف، الآية: ١٠٣ .

٤٠) تنظر: محاضرات اسلامية في الفكر والدعوة: العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي، جمع وتعليق : سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م : ١/ ٢٢٥. أصول التربية الاسلامية وأساليبها:١٨٨ . ١٨٩.

٤١) ينظر : القضاء والقدر في الإسلام: د. فاروق أحمد الدسوقي، دار الاعتصام، بدون سنة الطبع : ١٨٨/١ .

٤٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٤ . النمل: ١٤ و ٥١ .

٤٣) سورة يونس، الآيتان: ٣٩ و ٧٣ .

٤٤) سورة الأعراف، الآية: ١٠٣ .

٤٥) سورة الأحزاب، الآية: ٦٢ . الفتح، الآية: ٢٣ .

٤٦) سورة الكهف، الآية: ٣٢ .

٤٧) سورة الكهف، الآية: ٤٢ .

٤٨) سورة القصص، الآية: ٧٨ .

٤٩) سورة الكهف، الآية: ٣٦ .

٥٠) سورة الكهف، الآية: ٣٧ .

٥١) سورة الكهف، الآية: ٣٧ .

٥٢) سورة الكهف، الآية: ٤٠ .

٥٣) فما من موقف عرض له القرآن الكريم إلا له وجودٌ في التأريخ الإنساني، لا كما قرره بعض الكتاب من أنه لا وجود حقيقي لهذه الأحداث . فمقولة من أُطلِق عليه عميدُ الأدب العربي ـ طه حسين ـ في هذا مشهورةٌ، حيث قال: في الشعر الجاهلي:ص ٢٦ :(للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهم أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التأريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة) .

ومما يؤكد واقعية النماذج والمواقف القرآنية كونُ القرآن ـ في كثير من الأحيان ـ يحدد عنصريِ الزمان والمكان اللذين صحبا هذا الموقف، ترسيخاً لواقعيته، وردّاً لمن قال: إنه نسج من الخيال أو أسطورة من أساطير التأريخية .

٥٤) ينظر : منهج التربية الإسلامية : محمد قطب، دار الشروق، ط١٧، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م : ١٩٦/١ ، ١٩٨.

٥٥) وفي قوله ـ تعالى ـ: [فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ] قال الفجرة: إنه ظن أن لا يقدرَ الله عليه، بمعنى : أن لا يُمكنه أن يفعل به على وجه العجز !! وهذا كفرٌ صُراح لا يمكن أن يعتقدَه مقلِّدٌ في الإيمان فكيف نبيٌّ ؟ . ويردُّ هذا الزعمَ الباطلَ ذيلُ الآية : [فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ]، فهو يدعوا اللهَ بالنجاة ويريد منه ـ تعالى ـ تنفيسَ كُربته، وتنفيسُ الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له . فكيف يستقيم المعنى لو قلنا : لن يقدرَ عليه بمعنى: أنه ظنَّ أن الله لا يمكنه أن يفعل فيه ولا يسيطر عليه ؟!!أعاذنا الله من سوء الفهم بمنه وفضله .

وهذا الفهم ناشيء عن جهلٍ باستعمالات اللغة، فليس المعنى هنا ـ لن يقدر ـ بمعنى القدرة عليه والسيطرة، ولو استوعبنا هذه المادة في القرآن (قَدَرَ) لوجدنا لها معنى آخر، كما في قوله ـ تعالى ـ: [لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا] سورة الطلاق : (٧) معنى :

قُدر عليه رزقُهُ يعني: ضُيِّقَ عليه . وقال ـ تعالى ـ: [أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ] سورة الزمر (٥٢)

أي: يضيّق . إذاً قوله ـ تعالى ـ: [فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ] أي: أن يونس لما خرج من بلده مغاضباً لقومه غلب ظُنه لسعة حِلْم الله ـ تعالى ـ ألا يطلبه بذلك الفرار لكونه قد أدّى ما عليه، وظن أنّ الله لن يضيّق عليه، بل سيوسّع عليه ويبدله ببلده مكاناً أفضل منها . وهذا هو الذي يجوز أن يَعتقِده الأنبياءُ، وأن يُعتَقد فيهم .ينظر: تنزيه الأنبياء

عما نسب إليهم حُثالة الأغبياء: أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بـ(ابن خُمَير)، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، سورية، ط٢، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م: ١٢٩ ـ ١٣٠ . جدّد إيمانك: الشيخ محمد متولي الشعراوي، إعداد: عبدالرحيم محمد متولي الشعراوي، دار التوفيقية للطباعة، دون سنة الطبع : ١٥٦ ـ ١٥٧ .

٥٦) سورة الأنبياء، الآية : ٨٧ .

٥٧) خرج سيدنا يونس مغاضباً لا غاضباً ؛ تدل على المفاعلة لأن قومه شاركوه، وكانوا سبب غضبه. كما حدث في مسألة هجرة النبي (ﷺ فرسول الله هاجر مكة لكنه لم يَهْجُرها، فسمِّيَتْ هجرةً ؛ لأن أهل مكةَ هجروا رسول الله أولاً، وهجروا دعوته وألجئوه أيضاً إلى الهجرة وترْك مكةَ، فهم طرفٌ في الهجرة وسببٌ لها . جدِّد إيمانك : ١٥٥ .

٥٨) ينظر: تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حُثالةُ الأغبياء: ١٢٨ .

٥٩) سورة الأنبياء، الآية : ٨٧ .

٦٠) سورة الأنبياء، الآية : ٨٨ .

٦١) ينظر: جدّد إيمانك : ٢٢٩ .

٦٢) سورة الكهف، الآيتان : ٨٣ ـ ٨٤ .

٦٣) دراسات قرآنية : الشيخ أبي الحسن على الحسني الندوي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط١، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م : ٢٠٩ ـ ٢١٠ . جدّد إيمانك : ٢٢٩ .

٦٤) منهج تربوي فريد في القرآن الكريم : ٦٧ . منهج التربية الإسلامية : ١٩٦ .

٦٥) سورة الكهف، الآية : ١٣ .

٦٦) سورة الأنبياء، الآية : ٨٧ .

٦٧) سورة الأنبياء، الآية : ٨٨ .

٦٨) سورة الأنبياء، الآية : ٨٨ .

٦٩) كتاب اللمعات : بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمها : إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، اسطنبول، تركيا، ط٥، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٨م : ٦ـ ٧ .

٧٠) سورة الأنبياء، الآية : ٨٧ .

(٧١) المعطلة: هم الذين أنكروا قيام الصفات بذات الله ـ تعالى ـ وذلك بجحد أسمائه وصفاته، وكتعطيل معاملة الله ـ عز و جل ـ بترك عبادته، وكتعطيل المصنوع من صانعه، كمن قال بقدم المخلوقات، وجحد أن الله ـ عز و جل ـ خلقها وصنعها، وهذا النوع من التعطيل هو المراد هنا. ينظر: نهاية الإقدام في علم الكلام: ١٢٣ وما بعدها . الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية: عبدالعزيز محمد السلمان، مكتبة الرياض الحديثة، ط٥، ص١٣٩٤هـ=١٩٧٤م : ٣٣-٣٤.

٧٢) سورة المؤمنون، الآية : ٣٧ .

٧٣) سورة الجاثية، الآية : ٢٤ .

٧٤) لكن الله قد يخرق تلك العادة . ردّاً للفكرة . فيُوجِد الأثَر بدون الوسائل العادية، بل أحياناً مع الوسائل تقتضي خلاف ذلك الأثر ليُرشِد الناسَ ويُعلّمهم بأنّ تلك الوسائل العادية يمكن أن يخلق الله الأثرَ بدونها وأن لا يُوجِد الأثَر مع تمامها، بل ويُعدمه مع وجودها. مثلاً: جعل الوالدين سبباً عادياً وطبيعياً لخلْق البشر، وحرق ذلك في سيدَيْنا آدم وعيسى ـ على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ـ، وجعل الحرارة المفرطة سبباً عادياً في إحراق ذي الحياة وإهلاكها، وخَرق ذلك في سيدنا إبراهيم . عليه السلام . وقال: [قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ]سورة الأنبياء، الآية: ٦٩. ففي النار كان سببُ الإحراق موجوداً لكن نتيجةُ الإحراق معدومٌ، وكان سببُ البرد معدوماً فيه مع أن البرد فيها موجود. وهذا هو معنى المختار: لو أراد أن لا يخلق الأثر مع وجود السبب بل يُعدِمه، ويخلُقه مع انتفاء السبب . ينظر: سراج القلوب: الشيخ محمد عثمان بن الشيخ علاءالدين النقشبدي،إعداد: د. خالد رفعت الفقيه، طبع في استنبول، ط٢، ١٤١١هـ = ١٩٩١ م: ١٩٨. ١٩٩. الألطاف الإلهية شرح الدرر الجلالية: العلامة محمد باقر البالكي المشهور بـ(المدرس الكردستاني)، إعداد: د. خالد رفعت الفقيه، طبع على نفقة الشيخ محمد عثمان سراج الدين النقشبندي،استنبول، ط١، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م: ٢٢١/٢ وما بعدها.

٧٥) سورة هود، الآية : ٥٤ .

(٧٦)تبصرة الأدلة في أصول الدين: أبو المعين ميمون بن محمد النسفي، تحقيق: كلود سلامة، من منشورات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م: ٥٩٤/٢ . سراج القلوب : ١٩٩-٢٠٠.

٧٧) محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة: ٣/ ٨٢ ـ ٨٣ .

٧٨) سورة الصافات، الآية: ٩٥ .

(٧٩) ينظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، دار الكتب العربي، بيروت، ١٤٠٠هـ = ١٩٧٩م : ١٤٩. كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع: الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تصحيح وتعليق: حمودة غرابة، دار التوفيق النموذجية، القاهرة : ٦٩ ، ٧١ .

٨٠) سورة نوح، الآيات : ١٣ . ٢٠ .

٨١) ينظر: منهج القرآن في عرض العقيدة الإسلامية: جمعة أمين عبدالعزيز، دار الدعوة للطبع والنشر، ط٣، ١٤١٤هـ=١٩٩٣م: ١٢٧ . ١٢٨ .

٨٢) سورة الكهف، الآيتان : ٨٤ . ٨٥ .

٨٣) سورة الكهف، الآيتان : ٨٧ . ٨٨ .

٨٤) سورة الكهف، الآيتان : ٩٥ . ٩٦ .

٨٥) سورة الكهف، الآية: ٩٧ .
٨٦) سورة القصص، الآية: ٧٨ .
٨٧) دراسات قرآنية : ٢٠٨ إلى ٢١٢ . محاضرات اسلامية في الفكر والدعوة: ٢/ ٣٢٥إلى ٣٣٢
٨٨) سورة الكهف، الآية: ٩٨ .
(٨٩) سورة الفرقان، الآية: ٢١.
(٩٠) ينظر : هدي القرآن إلى الحجة والبرهان. الشيخ عبدالله سراج الدين، مؤسسة الشام للطباعة، دمشق، سورية، ط١، ١٤١١هـ = ١٩٩١م: ٢٢ .
٩١) سورة غافر، الآيتان :٣٦ . ٣٧ .
٩٢) سورة الكهف، الآية: ٥ .
٩٣) تنظر: مقالات وفتاوى : الشيخ يوسف بن أحمد بن نصر الدَّجْوي، دار البصائر، القاهرة، مصر، دون سنة الطبع: ١ /٥٤٦ . منهج القرآن في عرض العقيدة : ٢٤٤ . ٢٤٦ .
٩٤) سورة القصص، الآية: ٧٨ .
٩٥) سورة الكهف، الآية: ٣٦ .
٩٦) دراسات قرآنية : ٢٠٨ ،٢٠٩ .
٩٧) سورة محمد، الآية: ١٢ .
٩٨) ينظر: جدد إيمانك : ٢٧٨ . ٢٧٩ . محاضرات في الفكر والدعوة للندوي: ٣/ ٤٧٦ ، ٤٧٨ .
٩٩) سورة الأعراف، الآية: ٥١ .
١٠٠) سورة النحل، الآية: ٢٢ .
١٠١) تنظر : محاضرات في الفكر والدعوة للندوي: ٣/ ٤٧٩، ٤٨٠.
١٠٢) سورة الشعراء، الآية: ١٣٠ .
١٠٣) سورة النمل، الآية: ٣٤ .
١٠٤) سورة الشعراء، الآيات : ١٨١ . ١٨٣ .
١٠٥) سورة الشعراء، الآيتان : ١٦٥ . ١٦٦ .
١٠٦) سورة العنكبوت، الآية : ٣٩ .
١٠٧) سورة الشعراء، الآيات: ٦٩ . ٨٢ .
١٠٨) قصص الأنبياء: الشيخ محمد متولي الشعراوي، إعداد: عبدالرحيم محمد متولي الشعراوي، دار التوفيقية، القاهرة: ٩٢ .
١٠٩) محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة:٢/٢٩٤-٢٩٦ .

(١١٠) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: الشيخ محمد طاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، بدون طبعة، ١٩٨٤م ٢٣٢/١. منهج الحضارة الإنسانية: ٥٠ ، ٥٢. فلسفة التربية الإسلامية: ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة الهادي، مكة المكرمة، ط٢، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م : ٢٣٨ .

١١١) ينظر: خصائص التعبيرالقرآني وسماته البلاغية : د. عبدالعظيم ابراهيم المطعني، الناشر : مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م: ١/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩ .

١١٢) تنظر: دائرة معارف في سيرة النبي: الشبلي النعماني والسيد سليمان الندوي، تعريب: د. يوسف عامر و د. بدالحميد الندوي، طبع على نفقة د. حسن فضل عباس بالقاهرة ، دون سنة الطبع: ٦٥٤/٤ .

١١٣) منهج تربوي فريد في القرآن الكريم : ٥٤ .

١١٤) سورة عبس، الآيات : ٢٤ ـ ٤٢ .

(١١٥)منهج القرآن في عرض العقيدة الإسلامية: ١٦٣.

(١١٦) سورة فصلت، الآيات: ٩-١٢.

١١٧) الألطاف الإلهية : ٨٢/٢ .

(١١٨) وفي القرآن شواهد على ذلك: فمع سيدنا نوح عليه السلام كان الأمر للأرض والسماء: [وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ]، سورة هود، الآية:٤٤ . ومع سيدنا إبراهيم كان الأمر للنار:[قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ] سورة الأنبياء، الآية:٦٩ . ومع سيدنا موسى كان الأمر لليم و الساحل:[أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ] سورة طه، الآية: ٣٩.

ودلالة هذه الآيات وإن كانت مسوقة لإظهار المعجزة أصالةً لكن لو نظرنا بدقة نحسّ بعبودية الكون من خلالها أيضاً، ولا يعدل شيء في الأرض ولا في السماء عن مهامه إلا الإنسان، ويبدو ذلك في نظامه البديع وسننه التي لا تتبدل ولا تتغير في السماء والأرض وما فيها من بحر ولا نار، وفي هذا عبرةٌ للإنسان ترغيباً مزيجاً بالترهيب بحيث يرهب الإنسان من عدم موافقته لباقي الكائنات ويختار التمرد وعدم الإلتزام، ويرغّبه بالموافقة معها في الانقياد والطاعة . ينظر: الألطاف الإلهية: ٨٢/٢، ٨٣. منهج القرآن في عرض العقيدة: ص ١٦١ ، ١٦٢ . قصص القرآن الكريم: د.فضل حسن عباس، دار النفائس، الأردن، ط٣، ١٤٣١= ٢٠١٠م: ص ١٨٥ و ٣١٠ و ٤٨٥.

(١١٩) منهج القرآن في عرض العقيدة: ١٦٧ . نظام الإسلام: ٤٧ . والطبيعة في القرآن الكريم: ١٣٨.

(١٢٠) سورة النور، الآية: ٤١.

١٢١) سورة النور: الآية : ٣٩ .

(١٢٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(١٢٣) سورة الرعد، الآية: ١٣.

(١٢٤) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

(١٢٥) ينظر: تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري، ط٢، مكتبة مصطفى الحلبي: ١٣٨/٢٣ . معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت: ٣٢٤/٤ . أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد أمين بن محمد المختار الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت: ٨٠٤/٧.

١٢٦) سورة ص، الآية: ١٨ .

(١٢٧) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(١٢٨) هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان: الشيخ عبدالله سراج الدين، مؤسسة الشام للطباعة والتجليد، دمشق- سورية، ط١، ١٤١١هـ= ١٩٩١م: ص ٣٥٠.

(١٢٩) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(١٣٠) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(١٣١) سورة الحج، الآية: ١٨.

١٣٢) سورة الحج، الآية: ١٧ .

(١٣٣) ينظر: نظام الإسلام لديب البغا: ٤٧.

(١٣٤)

(١٣٥) سورة الرعد، الاية: ١٥.

(١٣٦) معاني القرآن وإعرابه :أبو اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: د. عبدالجليل شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت لبنان، دون سنة الطبع: ١٤٤/٣.

(١٣٧) ينظر: تفسير الطبري: ٣٩٧/١٣ . تفسير البغوي: معالم التنزيل: الحسين بن مسعود أبو محمد البغوي، تحقيق: خالد العك، ط٢، دار المعرفة، بيروت، لبنان: ٧٤/٣.

(١٣٨) سورة مريم، الآيات: ٨٨-٩٢.

(١٣٩) ينظر: هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان: ص ٣٥١.

(١٤٠) سورة لقمان، الآية : ١٣ .

(١٤١) تنظر: محاضرات ول مواقفه (ﷺ) مع العالم:١٨٣/٣، ١٨٤.

(١٤٢) ينظر: منهج القرآن في عرض العقيدة الإسلامية: ١٨٤ .

(١٤٣) ينظر: الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية لماذا؟ وكيف؟ : ٣٤- ٣٥. منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم . ٨٢ .

(١٤٤) المصدران أنفسهما .

Extract:

This research addresses an important point of concern to most researchers in Islamic studies , are: high-end view of the Quranic universe.

Researcher presented his research in the hands of the golden rule adopted by the Koran within the foundations of the educational approach.

And then moved to the first section of which spoke through the first requirement on the basis of minutes that must each researcher commitment : the adoption of scientific research compromise in the definition of the universe , and to emphasize that the best way to decipher the mystery that puzzled her jaw in human brains . In the second requirement spoke on the application of the rule in the definition of the universe and the statement of wisdom in it.

In the second part, spoke on the historical evidence ; approach Rabbani as Mubarak's reasoning , is a summary of the experiences of the previous nations , reflecting the ways of God to the nations. In the first requirement of the Koran spoke on approach in the presentation of the story and its advantages . In the second requirement spoke on the application of the approach in human perception towards the universe and the statement of wisdom in it. In the third demand : Speaking about the comparison between the infidel and the insurer about a vision of the universe

In the third section spoke to the emotional excitement and their role in education . In the first requirement spoke to approach the Qur'an in the excitement and emotional advantages. In the second requirement spoke on the application of the approach in the definition of the universe and the statement of wisdom in it. In the third demand spoke about the difference between failure scholars of philosophy and ethics in their success in education and some professional approach the Lord in them.